المكتبة السيكلوجية

الذكاء وقوة الإرادة

عاطف عمارة

الناشر
كتابوك شوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما العلاقة التى تربط بين «الذكاء» من جهة، و«قوة الإرادة» من جهة أخرى؟

إن جميع علماء النفس يذهبون إلى أن الذكاء من أهم مميزات الشخصية، لأنه يعنى مختلف القدرات العقلية التى يتمتع بها الإنسان، أما «قوّة الإرادة» فلا أظن أننا بحاجة إلى تبصير القارىء بأنها هى الأخرى من مميزات الشخصية الإنسانية.

فالذكاء طاقة أو قوّة إنسانية، والإرادة أيضا قوّة إنسانية، ولعل هذا هو السبب الذى حدا بنا إلى أن نجمع بين الذكاء وبين قوة الإرادة في مؤلف واحد معًا.

بيد أن هناك رؤية فكرية لدى المؤلف، وهى على بساطتها يمكن أن تشكل فلسفة تقود الشخص إلى النجاح، خاصة إذ كان النجاح في إطار نفس الرؤية الفكرية لايعنى سوى «تحقيق الذات»، وخاصة – أيضا – إذا كان مايعنية المؤلف «بتحقيق الذات» هو التوظيف الأمثل لكافة القوى والقدرات العقلية والنفسية لبلوغ اقصى إبداع ممكن لعمل تلك القوى في مختلف الميادين .

من هنا كانت أهمية الربط بين «الذكاء» وبين «قوّة الإرادة» في هذا الكتاب .

ولقد حاولنا أن نقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب، وهو الجزء الخاص بالذكاء كل مايتعلق بموضع الذكاء بدءًا من تعريف الذكاء، ومروراً بمراحل نموه، ثم طرق تنميته، ثم معوقات تنميته، إلى أن انتهينا إلى مقاييس واختبارات الذكاء. وبذلك نكون قد قمنا بتغطية علمية لموضوع الذكاء تشمل خلاصة الخبرة الحديثة لعلم النفس في هذا الميدان ، أعنى ميدان الذكاء ودراسته .

أما فيما يخص موضوع الإرادة، وهى الموضوع الذى خصصنا له الجزء الثانى من هذا الكتاب فإننا حاولنا فيه أن نمزج بين الاتجاه العلمى والاتجاه الفلسفى في تناول الموضوع، لذا فقد بدأنا ببيان أن قوّة الإرادة في ذاتها ماهى إلا «إرادة للقوّة» . وفي اعتقادنا أن هذه البداية كانت مهمة وضرورية لأن هناك من يفرضون على مثل هذا الموضوع تفرقة تعسفية تفرق بين مفهومى «قوّة الإرادة» من جهة و«إرادة القوّة» من جهة أخرى .

ثم كان علينا أن نحدد التعريف العلمى للإرادة، ويليه التعريف الفلسفى أيضا فإذا فرغنا من ذلك كان علينا أن ننظر إلى «الإرادة» في ضوء علاقتها بالجسم والعقل والأعصاب .

ولأن الرؤية الغالبة لدى المؤلف هى الرؤية الفلسفية، فإنه قد ذهب في فصل «إرادة القوّة : إرادة للوجود» إلى أن الإرادة شأنها شأن سائر القوى الكونية السارية في جميع الموجودات، فهى قوّة موجهة للوجود منذ النشأة الأولى للوجود، واستمرت هذه القوة توجه الوجود في كل مستوياته بما في ذلك الوجود الإنسانى .

ثم كان علينا بعد ذلك أن نوضح العلاقة بين قوة الإرادة وقوة الشخصية، ثم نختم كتابنا هذا بمعنى نلخصه في فصل بعنوان «كن ذاتك .. تكن قويا» وهو نفس المعنى الذى أردنا تأكيده في الفصول السابقة لهذا الفصل من فصول موضوع الإرادة وهو أن القوة مرتبطة بالوجود، وأن هدف وجودها في الوجود وتوجيهها له

هو أن يحقق الوجود ذاته في أفضل صورة باستخدام قواه الكامنة فيه .

والواقع أنه إذا كان الذكاء من أهم دعائم الشخصية، ومن أهم سمات القدرات العقلية إلى جانب كونه (قوّة) من قوى الإنسان الكامنة ، فإن هذا ماحدا بنا إلى القول – في هذا الكتاب – إن النجاح إن هو إلا استخدام قوة الذكاء (كقدرة إبداعية) مع قوّة الإرادة، بحيث يكون هدف هذا الاستخدام هو إعادة صياغة الوجود الفردى الذاتى في النمط أو الصيغة التى تكفل له أقصى استخدام ممكن للقوى الإنسانية المبدعة وفى مقدمتها الذكاء وقوّة الإرادة .

إذ إننا نفهم النجاح باعتباره التحقيق الكامل لقوانا وملكاتنا ومواهبنا، أيا كانت العوامل المعوقة أو المعرقلة لتلك القوى والمواهب، لأن الاستخدام الأمثل للذكاء وقوّة الإرادة معًا من شأنه أن يذلل العقبات ويتحدى المعوقات، بيد أننا نعتقد كذلك أن أفضل الميادين التى يتحقق فيها النجاح الإبداعى هى تلك الميادين التى يتطلب الخوض فيها وجود قدرة الذكاء جنبا إلى جنب مع قوّة الإرادة. وتشمل هذه الميادين: الأدب والفن، والفلسفة، والعلم والتكنولوجيا، والشئون الاجتماعية والسياسية أى (الإصلاح) في مجالهما، فإذا كانت هذه الميادين كلها تحتاج إلى الذكاء للتميز في مضمارها فإنه ما لاشك فيه أيضا أنها تحتاج إلى قوّة الإرادة، ويتضح ذلك عندما نقف على الدور الذى تؤديه (قوّة الإرادة) – من الناحية السيكلوجية – في حياة المبدع في هذه المجالات ، فمن شأن الإرادة أن تحفز الطاقة النفسية المناسبة لحجم الإنجاز المطلوب،ومن شأنها أن تحدد وتضاعف أهداف النجاح في مجال معين من تلك المجالات ومن شأنها أيضا أن تمدّ المبدع بطاقة الإصرار والعزم على مواصلة الكفاح على الرغم من كافة المعوقات والمشاق التى يعانيها من ردود الفعل المعاكسة لإرادته الإصلاحية .

والواقع أنه لايمكننا على الإطلاق أن نتصور أن هناك أى عمل من الأعمال، أيا كان شأنه، ومهما عظم أو صغر، يمكن أن يتم بدون «الإرادة»، لكننا نؤمن وبنفس القوة، بأن الأعمال العظيمة تطلب إرادة عظيمة بالإضافة إلى قدرات عقلية متميزة ومواهب خاصة منها الذكاء .

كما نؤمن بأن الشخصية القوية هى أيضا شخصية تتمتع بقوّة الإرادة، وأنها بفضل تمتعها بقوّة الإرداة أمكنها التخلص من سائر عوامل الضعف، وأن التخلص من سائر عوامل الضعف إنما يعنى (تحرر الشخصية) من كافة القيود والأغلال التى تعرقل نموها وتعوق قوتها عن الإنطلاق. سواء كانت تلك القيود والأغلال خاصة بالمجتمع أو بعوامل نفسية خاصة بالشخصية ذاتها .

فأما القيود الاجتماعية فيمكن أن نجملها في النمطية والقوالب التى يفرضها المجتمع على الأشخاص، وهى نمطية وقوالب سلوكية تقتل ملكات الإبداع والابتكار والتميز والاختلاف .

وأما القيود النفسية الذاتية فمنها الميول والاستعداذات الموروثة من جهة ، والخوف والخجل والعقد النفسية المكبوتة من جهة أخرى، وهذا أقل دور يمكن أن تؤديه الإرادة في حياة الشخصية القوية، المبدعة الذكية .

أقوى قوتين أساسيتين للروح هما الذكاء وقوّة الإرادة ، ولنا أن نتصور مايمكن أن نحققه لو استخدمنا أهم قوانا الاستخدام الصحيح في إعادة صياغة وجودنا وفقا لبرنامج يتوخى تحقيق مجموعة من الأهداف العظمى ويرسم في نفس الوقت ملامح شخصيتنا التى تتسم بالذكاء وقوّة الإرادة، فمن منا لايحب أن يكون ذكيا وأن يوصف بالقوة ؟ نحن جميعا نرغب في أن يعتقد الناس أننا أذكياء ونرغب في أن يرانا الناس أصحاب شخصيات قوية . لكن كوننا نرغب في ذلك فإن هذا شيء، وواقع مانحن عليه بالفعل شيء آخر. ماجدوى وجود كل القوى التى نتمتع

بها إذن مادام واقعنا الذاتي يختلف تماما عما نصبو إليه ونرجوه ؟

الحقيقة أن جدى وجود تلك القوى في حياتنا من الخطورة إلى درجة أن وجودنا ذاته يكون بلا قيمة إذا انعدمت فيه تلك القوى. وهو كذلك بالفعل، والسبب ليس في القوى ذاتها، بل السبب يكمن في رغبتنا نحن في أن نصبح بالفعل أذكياء وأقوياء، بل المشكلة الحقة هى أننا ربما نريد أن نكون من أهل الذكاء والقوّة، ثم لانفعل مايؤدى بنا بالفعل إلى أن نظهر الذكاء والقوّة التى نملكها بالفعل، ذلك لأن الذكاء وقوّة الإرادة من القوى العامة التى يتمتع بها جميع البشر، فهى ليست قوى مقصورة على فئات دون غيرها من الناس، والمهم هو كيف يستخدم الناس هذه القوى؟ فإن استخدامهم لها إما أن يطورها وينميها ويظهرها، وإما أن ينحط بها فتضمر وتذبل وتذوى . وهى إذا نمت وتطورت، نما وتطور وجودنا، وظهرنا على مسرح الوجود في صورة أهل الذكاء وقوة الارادة. وهى إذا انحطت وتدهورت وذبلت ثم ذوت، انحط وجودنا وتدهور وذبل وظهرنا على مسرح الوجود في صورة أهل التخلف والضعفاء الذين لاحول لهم ولاقوة .

وعلى ذلك فالسبيل الأمثل لتنمية الذكاء وقوّة الإرادة هو أن نوظفهما لتحقيق أهدافنا الوجودية من خلال برنامج نرسمه ونعتبره المشروع الخاص بتنمية وجودنا وتحقيق ذاتنا في الصورة التى نريدها . فإذا فعلنا ذلك واستطعنا (تحقيق ذاوتنا) أى استطعنا استخدام قوانا وملكاتنا – ومنها الذكاء وقوّة الإرادة – الاستخدام الأمثل فإننا بلا أدنى شك سنصل إلى تحقيق النجاح الشامل (السعادة) في الحياة، كما سنكون من أصحاب الشخصيات القوية الذكية التى تنتقل في المجتمع من نجاح إلى نجاح لأن هدفها النهائى هو تحقيق (النجاح الشامل) على مستوى الوجود الذاتي ، وعلى مستوى الوجود الاجتماعى أيضا .

إن منابع القوة تكمن بداخلنا، فقط علينا أن نكتشفها وأن نوظفها التوظيف الأمثل وأن نستخدمها لخدمة ذواتها وتحقيق نجاحنا، فالنجاح أو الفشل يتوقفان على طريقة استخدامنا لقوانا الكامنة، وطريقة تفكيرنا في ذاتنا وفي العالم، ونظرتنا إلى ما نملكه من قوى وملكات ومواهب .

عاطف عمارة

الذكـــاء

تعريف الذكاء :

عندما يتحدث علماء النفس عن الذكاء فماذا يقصدون ؟

انهم يقصدون الحديث عن القدرات العقلية لنسبة من البشر تتراوح بين ٧٠ إلى ٨٠٪ من هؤلاء البشر الذين يشكلون السواد الأعظم في المجتمع. ومن جهة أخرى فهم يقصدون بحديثهم عن القدرات العقلية كل ما يميز هؤلاء البشر من قدرات تدل على الفروق الفردية لكل منهم على حدة، لكن في حدود التعريف العام للذكاء : (القدرات العقلية العامة) .

إذاً فالتعريف العام للذكاء ينصب على النسبة الكبرى التى تشكل السواء الأعظم من البشر، وبالطبع فإن هذا التعريف لا ينطبق على أصحاب القدرات المنخفضة جدا، وكذلك لا ينطبق على أصحاب المواهب الفائقة والقدرات العقلية العليا من العباقرة .

وبهذا المعنى فإن الذكاء يشمل القدرات العقلية لنسبة هائلة من البشر، بغض النظر عن المجتمع ، بل إن الذكاء العادى لهؤلاء البشر في المجتمع يمكن أن نجده لدى ٧٠ أو ٨٠٪ من أفراد المجتمع .

وعلى ذلك فالجميع، في حدود النسبة السالفة، يتمتعون بذكاء أى بقدرات عقلية، أما ما يمكن اعتبارة الاختلاف الحقيقى بين كل فرد من أفراد المجتمع فهو اختلاف في درجة الذكاء أو المجال الذى يظهر فيه. فالذكاء – بهذا المعنى – ليس حكرا على فئه دون أخرى من فئات المجتمع، طالما كان الذكاء يعنى مجموع القدرات العقلية التى يتمتع بها الإنسان .

والبشر جميعا يتمتعون بتلك القدرات العقلية وإن كانت النسب تتفاوت من إنسان إلى آخر، وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن أسباب هذا التفاوت في القدرات العقلية بين سائر أفراد البشر علينا أولا أن نحدد المعنى الذى يقصده العلماء بمصطلح (الذكاء) أو (القدرات العقلية العامة)، والواقع أن الاختلاف العظيم بين علماء النفس حول تعريف الذكاء إنما يرجع إلى اختلاف مدارس الفكر النفسي والتباين الشديد فيما بين هذه المدارس، لقد اختلف العلماء منذ البدء حول تعريف الشخصية ومكوناتها وأسباب ومصادر تكوينها. وكان لابد - بالتالى - من أن يقع نفس الخلاف حول القدرات العقلية التى تتميز بها كل شخصية على حدة. وإن أمكن - في النهاية - أن يتم الاتفاق على التعريف العام الذى يحدد مفهوم القدرات العقلية العامة (الذكاء).

وباختصار يمكننا أن نتعرف في هذا المجال على مجموعة من آراء علماء النفس في الذكاء، وأن نفرق بوضوح بين اتجاهات علم النفس ومدارسه، وموقف كل اتجاه من مسألة الذكاء والقدرات العقلية. وحتى تسهل هذه المهمة فإن علينا أن نحدد مجموعة من الأسئلة الخاصة بالذكاء، كما فعل علماء النفس على النحو التالى:

- ما الذكاء ؟
- ما العوامل التى تؤثر في اختلاف النظرة إلى الذكاء ؟
- ما العلاقة بين الذكاء والعقل ؟
- ما العلاقة بين الذكاء والقدرات الذهنية الإبداعية ؟
- هل الذكاء نشاط ذهنى يمكن إرجاعه إلى عوامل وراثية أم إلى عوامل إكسابية؟
- ما مكونات الذكاء وعناصره ؟
- ما العوامل التى تؤثر في مكونات الذكاء ؟

والواقع أن علم النفس قديما كان يذهب إلى اعتبار الذكاء قدرة موروثة، وكان لهذا الاعتبار أثره في النظرة إلى الذكاء إذ اتسمت النظرة النفسية القديمة للذكاء بالاستاتيكية والثبات، فما دام الذكاء موروثا باعتباره قدرة تنتقل عن طريق (الجينات) إلى الأفراد والأجيال فهو من ثم قدرة (ثابتة) لا تنمو ولا تتطور في الأفراد والأجيال على السواء. وهو كذلك قدرة غير عامة، بل هي خاصة لدى أفراد أو أجيال من أسر بعينها، أو مجتمعات محددة دون غيرها، والذى جعل من الذكاء قدره خاصة يتمتع بها أفراد أو أسر أو فئات أوطبقات أو مجتمعات معينة دون غيرها هو الوراثة، أو بالأحرى اعتبار الذكاء قدرة موروثة وتجاهل العوامل الأخرى المؤثرة في تكوين الذكاء وأسبابه.

لكن هذا المفهوم الاستاتيكى للذكاء قد تغير مع ظهور اتجاهات جديدة متطورة في علم النفس، وإذا كان الاتجاه النفسى القديم قد تأثر في نظرته للذكاء بعوامل انحيازه لطبقة أو مجتمع اعتمادا على نظرية الوراثة فإن الاتجاهات النفسية الجديدة تتسم بنظرة أكثر موضوعية وإنسانية في تناولها لمفهوم الذكاء، ومن ثم فإن الاتجاهات الحديثة في علم النفس بدءا من (بينيه) ومن بعده (جان بياجيه) قد رفضت المفهوم الاستاتيكى للذكاء وقالت بإمكانية نمو الذكاء واكتسابه وإن لم يتم تجاهل أثر العامل الوراثى في نفس الوقت .

لقد ذهب (جان بياجيه) إلى أن الذكاء يولد وينمو ويتطور مع ميلاد ونمو وتطور الكائن البشرى، وبهذا المعنى فإن جميع البشر يتمتعون بالذكاء العام، أما الذكاء الخارق الذى يتسم به العباقرة فأثر الوراثة فيه هو الأصل كما قرر (فرنسيس جولتون) وإن كان هو أيضا يمكن أن يخضع لعوامل النمو والبيئة والخبرات المكتسبة.

والذكاء عند (جان بياجيه) هو : «تكيف للبيئة، وهذا التكيف ماهو إلا توازن بين عملتى التمثيل والمواءمة» ويرى بياجيه أن الذكاء ينمو ويتطور، وأن عملية تطور الذكاء هى : «عملية بناء تركيب العناصر اللازمة للتطور وفقا لنظام معين يبدأ بتجميع هذه العناصر، وهى مازالت بعد هشة واهية، ثم العمل على توحيدها لتعد أساساً صلبا لنشاط عقلى »(*)

وأيضا هناك اتجاهات نفسية أخرى تزاوج في مفهومها للذكاء وفقا لمصادرة بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة أو العوامل المكتسبة، وترى تلك الاتجاهات أن الذكاء قدرة فطرية موروثة تنتظر مؤثرات البيئة والخبرات المكتسبة حتى تنمو وتتطور .

وإلى جانب هذه الاتجاهات هناك مدرسة خاصة يمثلها «واصسون» الذى يرفض الاعتراف بدور للوراثة في الذكاء، ويرى أن البيئة وحدها هى المكون الأساسى للذكاء والتكوين العقلى عموما .

والواقع أن مايمكن أن نقف عليه من تعريفات مختلفه للذكاء لا يستند فحسب إلى الاتجاهات الفكرية النفسية، فإن هناك - إلى جانب التعريفات النفسية - عدّة تعريفات فلسفية واجتماعية وبيولوجية . وفيما يلى نعرض لأشهر التعريفات وأهمها: التعريف الوظيفى، ثم التعريف البنائى، ثم التعريف الاجتماعى (التكيفى) يليه التعريف البيولوجى .

* التعريف الوظيفى :

هو التعريف الذى يأخذ به كل من «تيرمان» ويليه «شترن» ثم «كوهلر» يليه «جودارد» . يعرف تيرمان الذكاء بأنه القدرة على التفكير المجرّد، بينما يعرفه «شترن» بأنه القدرة العقلية على تكييف السلوك وفقا لمواقف وظروف الحياة، أما «كوهلر» فيرى أن الذكاء هو : القدرة على الاستبصار، ويرى «كلفن» أنه القدرة على

(*) : الذكاء وتنميته لدى أطفالنا : د. أسماعيل عبدالكافى، مكتبه الدار العربية. ص ٢١

التعلم، بينما ذهب «جوادرد» إلى أن الذكاء هو توظيف الخبرات السابقة والاستفادة منها في مواجهة مواقف الحاضر والتهيؤ النفسي للمستقبل .

* التعريف البنائي :

هو التعريف الذى يأخذ به كل من «ألفريد بينيه» و«ثيرستون» ويليهما «سبيرمان» ثم «ثورنديك» وهم جميعا يتوصلون إلى مفهوم للذكاء وفقا لمكونات الذكاء نفسه، فبينما يرى (بينيه) أن الذكاء هو القدرة على الحكم السليم فإنه يعلل ذلك بأن هذه القدرة الحكمية تنطوى على أربع قدرات أخرى هى : الفهم والابتكار والنقد والقدرة على حصر الفكر (التركيز) في موضوع أو اتجاه محدد قبل الانتقال إلى موضوع أو اتجاه آخر لتنفيذ عمليات فكرية أخرى .

ويوافق «ثيرستون» على المفهوم الذى تبناه (بينيه) مؤكدا أن الذكاء قدرة تتألف من مجموعة قدرات أخرى تتشارك جميعا في أداء العمل الذهنى الذى يعرف بالذكاء.

ويذهب «سبيرمان» إلى أن الذكاء قدرة فطرية مؤثرة في جميع أنواع النشاط العقلى بكيفية بنائية، أما «ثورنديك» فيذهب إلى أن الذكاء يتألف من عدد كبير من القدرات الخاصة المستقلة، كما يرى أن الذكاء هو المتوسط الحسابى الذى يمكن قياسه كنتيجة مباشرة لعمل هذه القدرات لدى الإنسان .

* التعريف الاجتماعى :

يذهب أنصار الأخذ بهذا التعريف إلى أن الذكاء عموما هو القدرة على التكيف مع المواقف الخارجية والمشاكل والظروف الاجتماعية، لذا فهم يعتبرون البيئة وعواملها والثقافة والتربية وخبرات الطفولة من أهم العوامل المؤثرة في نمو

وتطور الذكاء، وهم يعتبرون التكيف الاجتماعي عملية عقلية تتم عبر التمثيل أو التشبيه ثم التكيف .

*** التعريف البيولوجي :**

يؤكد أنصار هذا التعريف على أهمية التكامل الوظيفي للجهاز العصبي في تحديد مفهوم الذكاء، بيد أن هذا التكامل الوظيفي يعتبر من هذا المنظور العامل الوحيد المؤثر في ظهور الذكاء كجزء من النشاط العقلي الكلي الذي هو بدوره نتيجة نشاط الجسم البيولوجي عموما، فأي اختلالات جسمية أو هرمونية أو عصبية تؤثر في النشاط النفسي – العقلي عموما وتؤثر في الذكاء خصوصا .

*** التعريف الفلسفي :**

في الوقت الذي يحاول فيه العلماء تفسير الذكاء وبناء مفهومه بالاستناد إلى كل علم من العلوم على حدة فنجد بعضهم يذهب إلى تأكيد المفهوم الاجتماعي، وبعضهم إلى تأكيد المفهوم البيولوجي ، وبعضهم يأخذ بالمفهوم النفسي .. وهكذا، فإن الاتجاه الفلسفي يأخذ بالمنهج التكاملي في تعريف الذكاء، لذا يأخذ أنصار هذا الاتجاه وهذا المنهج بالقول باشتراك جميع العوامل الوراثية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية في التأثير على تكوين النشاط العقلي عموما وعملية الذكاء خصوصا .

فالتعريف الفلسفي يرى في عملية الذكاء توليفا من عدة قدرات تجمع بين التعلم والتكيف والتفكير المجرد، وبهذا المعنى تكون العوامل المؤثرة في عملية الذكاء عوامل وراثية وأخرى مكتسبة، بيد أن كلا من العوامل الوراثية والعوامل المكتسبة لايتم التفاعل بينهما إلا في وجود وسائط من الأسرة والمدرسة والأصدقاء والثقافة والتربية، فالذكاء وفقا لهذا الاتجاه هو مجمل القدرات العقلية الموروثة والمكتسبة معاً،

فهو خاصية من خصائص التفكير، لكنه بالطبع ليس هو التفكير نفسه، وهو ضرورة من ضرورات الابتكار لكنه ليس هو الابتكار نفسه، وهو أحد أركان العبقرية وأهم دعامة من دعاماتها، لكنه ليس هو وحده كل مكونات العبقرية .

ومن هنا كانت أهمية التفرقة بين الذكاء من جهة وبين كل من الابتكار والتفكير والعبقرية من جهة أخرى :

فالتفكير : وظيفة من وظائف الدماغ البشرى، يؤديها الدماغ بواسطة المخ، وتهدف هذه الوظيفة إلى (عقل) الأشياء والموضوعات، أى إلى : الفهم والتمثل، وبدون هذه الوظيفة يصعب تكيف الكائن البشرى مع الواقع الاجتماعي من جهة، كما يختل تناوله الإدراكى لعالم الأفكار والموضوعات من جهة أخرى، وإذا حدث الاختلال الإدراكى كان لذلك الاختلال أثره الفادح على الخبرات الانفعالية التى تؤثر بدورها في النمو الوجدانى والعصبى للإنسان. وليس بخاف على المرء ما يقوم به النمو العصبى من أثر بالغ الأهمية في المستويات المختلفة لمراحل نمو القدرة على التعلم، وهى إحدى القدرات التى يتألف منها الذكاء .

والابتكار : هو أحد المكونات الرئيسية لعملية الذكاء ، ويعتبره كثير من علماء النفس بمثابة النتيجة أو الثمرة النهائية للنشاط العقلى المتسم بالذكاء، لكن ليس الابتكار وحده هو كل مكونات الذكاء فليس الابتكار سوى قدرة من القدرات تنسجم وتتآلف مع غيرها لإنتاج النشاط العقلى الذكى. والفارق بين الابتكار كقدرة وبين العبقرية هو أن الابتكار قدرة لازمة للذكاء فحسب، أما العبقرية فهى القدرة الأشمل التى تضم كافة القدرات الأخرى ومن بينها التفكير والذكاء

والابتكار وسائر المواهب والقدرات الفردية التى تتسم بها الشخصية العبقرية. فالشخصية الابتكارية شخصية مبدعة لكنها ليست عبقرية بالضرورة، بينما الشخصية العبقرية شخصية ابتكارية مبدعة بالضرورة .

وإذا كان الابتكار نتيجة من نتائج الذكاء فإن تحليل آليات الابتكار يدلنا على بعض سمات الشخصية التى تتسم بالذكاء ومنها : الطلاقة والمرونة والأصالة والقدرة على التجديد والقدرة التحليلية، فالعلاقة بين الذكاء وبين الابتكار علاقة وثيقة الصله كما نرى .

ويفهم من ذلك كله أن الذكاء هو – في مفهومه العام – تحقيق النجاح والتفوق في الحياة عموما ، فأما في مفهومه القريب المدى فهو تحقيق النجاح أو التميز في مجال محدد أو في التعامل مع موضوعات معينة يعتبر التعامل معها بالنسبة للغير من المسائل الصعبة .

وصحيح أن الذكاء في مجمله هو قدرة عقلية، لكن المجال الذى يظهر فيه الذكاء هو مجال السلوك، فإننا لانستطيع أن نصف الذكاء إلا عندما يظهر في سلوك معين، وبالطبع تختلف مجالات ظهور الذكاء عبر السلوك من المدرسة إلى الإسرة إلى النادى ثم الأصدقاء والعمل. وفي كل هذه المجالات يظهر السلوك من خلال العلاقات الإنسانية في مختلف مراحل النمو من الطفولة إلى الشباب ثم الرجولة .. وهكذا ، فإن النجاح أو التفوق الدراسى هو ثمرة من ثمار الذكاء، والنجاح في العمل أيضا ثمرة من ثمار الذكاء، وفي النهاية فإن النجاح في الحياة – عموما – بمختلف مجالاتها الاجتماعية والعملية بالمعنى الذى يحقق قدرات الإنسان فيشعر – تبعا لذلك – بالسعادة ، مثل هذا النجاح الشامل هو المعنى العام المتسع جدا للفظ الذكاء .

مراحل نمو الذكاء

يولد الإنسان مزودا بمجموعة من القدرات الفطرية .

صحيح أن معظم القدرات الفطرية موروثه، بما في ذلك الذكاء، لكن ليس معنى ذلك أن نسبة الذكاء التى نولد بها تظل ثابتة على مدى مراحل العمر المختلفة، بل إن مايحدث هو أننا نولد ولدينا القدرات العقلية في حالة من الكمون وتظل هذه القدرات (كامنة) في انتظار ماينبهها من عوامل البيئة الخارجية فتنمو وتتطور أو ترتكس وتتدهور تبعا لمؤثرات البيئة .

ماترثه من القدرات يظل – إذن – كامنا في صورة استعدادات أولية، وتظل هذه الاستعدادات كامنة حتى تجد مايثيرها فستجيب له، فإذا كانت المثيرات من العوامل التى تساعد على النمو الإيجابى لتلك الاستعدادات وجدت هذه الاستعدادات المناخ المناسب لتطورها وتحولت إلى قدرات نامية متطورة تتواءم في نموها وتطورها مع نمو الكائن البشرى وتطوره الانتقالى الارتقائى من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى .

أما إذا كانت تلك المثيرات من العوامل المعوقة للنمو والتطور فإن مايحدث غالبا هو الارتكاس والتدهور لتلك الاستعدادات الكامنة، وهنا يبدأ تدهور القدرات في الظهور واضحا جليا في السلوك أى في الاستجابة لمثيرات البيئة .

أما المرحلة الأولى التى يبدأ فيها الذكاء في النمو فهى مرحلة مبكرة جداً على غير الشائع أو المعروف لدى العامة، إذ ينتظر الكثير من الآباء أن تظهر قدرات أطفالهم بعد التحاقهم بالمرحلة الدراسية الأولى (الأساسية) وهم بذلك يتجاهلون، عمدا أو عفواً، دورهم في التنشئة المنزلية ويتناسون تماماً أن ما يظهر من القدرات

لدى أطفالهم هو محصلة الوراثة من جهة والتنشئة التربوية والخبرية من جهة أخرى، لذا فإن هؤلاء الآباء يصدمون عندما تخيب آمالهم فيما يظهره الطفل من قدرات أقل مما كانوا يأملون فيه . والواقع أن الطفل يتأثر أول مايتأثر بالعلاقة الوالدية والأخوية من جهة، ثم بما يحصله من الخبرات الانفعالية والمعرفية نتيجة التربية من جهة أخرى، وتؤثر هذه العلاقة في نموه الانفعالى والإدراكى وبالتالى في تحديد نسبة نمو الذكاء .

بيد أنه يجب أن نقرر أنه ليست هنالك أى نسبة ثابتة للذكاء في مرحلة محددة لايمكن للذكاء أن يتجاوزها في مرحلة عمرية أخرى، لكن يتوقف النمو المستمر والانتقال من مرحلة عقلية إلى مرحلة أخرى على عدم تضافر جميع المعوقات والعوامل السلبية للإبقاء على الذكاء متجمداً عند نسبة محددة بلغها في مرحلة من المراحل العمرية مثال ذلك: أنه يمكن أن تتضافر العلاقة السيئة للطفل بأقرانه في الدراسة مع العلاقة السيئة بأقرانه في النادى مع الخبرات الوالدية المؤلمة فيؤدى هذا التضافر إلى عرقلة النمو العقلى – النفسى ويبدى الطفل ميولا عدوانية، أو على العكس ينسحب من المجتمع معلنا رفضه للجميع بشكل احتجاج صامت يتمثل في الانطواء حينا، أو الفشل الدراسى في أحيان أخرى .. وهكذا .

أما إذا قلت عوامل البيئة السلبية المؤثرة على النمو العقلى والنفسى ، أو توازنت هذه العوامل بمعنى أن يجد الطفل نجاحًا في علاقة مقابل الفشل في علاقة أخرى، لأمكن عندئذ للطفل أن يبذل المزيد من الجهد للتكيف أو لمواصلة النجاح وتحقيقه في مجال فشله، وهذا الجهد نفسه هو الذى يجعل من النمو مسألة ممكنة رغم الإخفاق الذى اعتور بعض مراحل النمو النفسى والعقلى .

والواقع أنه يمكن تقسيم مراحل النمو العقلى عموما، ومراحل الذكاء خصوصا، تبعا للتقسيم العلمى المتعارف عليه لدى علماء النفس، وهو تقسيم إلى مراحل عمرية وأخرى ذهنية، فالمراحل العمرية هى مراحل السن والمراحل الذهنية هى مراحل تطور الذهن ووسائله تبعا لتطور مراحل العمر على النحو التالى :

* المراحل العمرية :

أولاً : المرحلة الأولى هى مرحلة الرضاعة .

حيث تقوم الأم بدور هام في بلورة ذهن الطفل عن طريق علاقتها به ومناغاتها له مما يؤدى إلى تنشيط حواسه وجسمه وجهازه العصبى والحركى .

ثانيًا : مرحلة ماقبل الكلام (من ٢ - ٣ سنوات)

هى مرحلة لنمو الذكاء القائم على التصورات الأساسية الخاصة بالمكان والأشياء والزمان، والنطق، وفكرة السببية، وهى مرحلة بالغة الأهمية لتطور الإدراك الحسى، كما أنها المرحلة الأكثر أهمية في تثبيت علاقة الطفل بالأشخاص المحيطين به .

ثالثًا : مرحلة الإدراك الحدسى (من ٢ - ٤ سنوات)

تستمر هذه المرحلة أيضا حتى سبع سنوات من حيث خضوع الطفل للبالغ وهى المرحلة التى تتكون فيها الوظيفة الدلالية للغة، وهى كذلك المرحلة التى يكتسب الطفل معرفته فيها من خلال الملاحظة والاعتماد على المشاعر البيو شخصية (العفوية)، وهى لذلك مرحلة نمو المشاعر والأحاسيس والعلاقات الفردية مع الكبار ومع الزملاء في المدرسة، وهى أيضا مرحلة يتم فيها تطويع سلوك الطفل للتوافق الاجتماعى، ويؤكد «إريك أريكسون» أن هذه المرحلة هى التى تشهد بداية تكون الضمير من خلال التربية والعلاقات الاجتماعية (*) .

رابعًا : مرحلة الطفولة الوسطى (من ٧ - ١١ سنة)

تعرف هذه المرحلة بمرحلة العمليات العقلية الحياتية كذلك، وتتسم بإدراك المادة والحجم والوزن وبقاء الأشياء وخصائص الطول والعرض والاتساع والعمق لها، ويستمر النمو الانفعالى والخلقى ويتسق تكامل الجهاز الإرادى .

(*) المصدر السابق : ص ٣٨ .

خامسًا : مرحلة العمليات التجريدية (من ١٢ - ١٥ سنة)

تعرف لدى علماء النفس بأنها مرحلة تكوين الشخصية، وهى أيضا مرحلة الانتقال إلى المراهقة ، وتتسم العمليات العقلية لهذه المرحلة بالتجريدية والتصويرية والتنسيق والإضافة والربط الإنجازى الشمولى، وعن طريق التصور والتجريد تتحقق المعرفة الكاملة، أو شبه الكاملة، بالنفس والعالم . لذا تتسع الحياة الوجدانية في هذه المرحلة وتتسم بالمؤثرات والسمات الذاتية والمحاولات المستمرة لتوظيف كافة الطاقات العقلية، فإذا لم يتم توظيف هذه الطاقات بالشكل اللازم لها – المناسب للمرحلة – بسبب اضطرابات في الشخصية مثلاً ، فإن المراهق في هذه الحالة يصاب بالإرتكاس في مستوى الذكاء .

** المراحل الذهنية :

من المفيد جدا في الدراسات الخاصة بعلم نفس النمو أن نتذكر دائما أن الأطفال جميعا ليسوا سواء ، وإن كانوا في مرحلة عمرية أو ذهنية واحدة . ويرجع السبب في ذلك إلى عدد من العوامل الوراثية والبيولوجية والتربوية والبيئية، وإن الأساس الأهم في المراحل النمائية الأولى هو مايكتشفه الطفل فيها من أنماط مختلفة للسلوك والتفكير(*) وعلى ذلك فلكل مرحلة ذهنية هدفها وغايتها، ومن مجمل المراحل الذهنية يتم التطور الذهنى ويظهر أثر هذا التطور فيما يكتسبه الطفل من أنماط للسلوك والتفكير ويشمل النمو الذهنى نمو القدرات العقلية على اختلافها ومنها : الابتكار والذكاء .

(*) الدافعية والابتكار لدى الأطفال : د. محمود منسى، جدة ، مركز النشر العلمى بجامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٨٧ ، ص ٤١

بيد أنه يجب أن نفهم أن نمو القدرات الابتكارية والذكاء لا يرتبط بمرحلة عمرية محددة يبدأ عندها النمو، إذ الثابت أن هذا النمو يبدأ من مرحلة الرضاعة – كما أسلفنا – ويستمر عبر سلسلة متصلة من المراحل يكمل كل منها الأخرى .

لذا يجب على الآباء والمعلمين أن يهتموا بتنمية القدرات العقلية منذ المرحلة الأولى للطفولة، وأن يتعرفوا الطرق الواجب عليهم اتباعها لتنمية قدرات ومواهب أطفالهم العقلية منذ المرحلة الباكرة حتى يتوازى نموهم العقلى – الذهنى مع نموهم العمرى.

ومن المعروف أن أفضل وأبسط الطرق لتنمية القدرات الذهنية الابتكارية لدى الأطفال هى :

– التشجيع الدائم للطفل على استخدام الأشياء والموضوعات والأفكار، بطرق جديدة، تنمى قدرته الابتكارية .

– عدم إجبار الطفل على استخدام أساليب محددة في حل المشكلات أو في التعامل مع المواقف التى يتعرض لها .

– مكافأة الطفل على الأفكار الجديدة الابتكارية وتشجيعه على اكتشافها بنفسه.

– خلق وتقديم المثال الشخصى المتفتح ذهنيا كقدوة يحذو الطفل حذوها .

– تنمية عادة القراءة العلمية والأدبية لدى الطفل وتشجيع مواهبه الفنية والعمل على إثراء تلك المواهب.

- متابعة تفاعل الطفل في المدرسة والبيت ومع الأصدقاء بشكل إيجابي متكامل .
- التنويع في الألعاب والأنشطة التي تنمي المهارات والقدرات الابتكارية والذهنية .
- تنمية روح التفكير العلمي لدى الطفل وغرس القيم الإيجابية في وجدانه منذ الصغر
- تنمية روح حب العمل والنشاط والنجاح والثقة بالنفس والرغبة الدائمة في التمييز والتفوق والابتكار (*) .
- الاهتمام بالصحة النفسية والجسمية للطفل وخلق المناخ الملائم لنموه الذهني والجسمي في جو من الوئام العائلي والتفاهم والمحبة والحنان والاهتمام والمتابعة الدائمة .

ومن المتعارف عليه في ميادين علم النفس أن هناك اختبارات عامة لقياس القدرات العقلية، ومنها الذكاء، في مختلف مراحل العمر. كما أن هناك اختبارات خاصة لقياس القدرات النوعية والمهارات الذهنية المختلفة مثل « الابتكار » . ويمكننا أن نتعرف باستخدام هذه الاختبارات على الدرجة المئوية التي تحدد مستوى الطفل بين أقرانه، وخاصة من هم في مستواه العمري، وتعتبر النسبة المئوية (٥٠٪) هي متوسط الدرجة الدالة على المستوى العقلي للطفل . فإن تحصيله لهذه النسبة يدل على أنه من الأطفال المتوسطي القدرة في مجال الاختبار ، وإن حصل الطفل على نسبة أقل (٢٥٪) مثلاً فهو أقل من المتوسط ، بينما إذا حصل على (٧٥ ٪) مثلاً فهو أعلى من المتوسط .

وتتناول اختبارات القدرات النوعية مختلف القدرات مثل: القدرات اللفظية، وإدراك الأبعاد والمسافات، والقدرة العددية (الرياضية) ، والقدرة التفسيرية (التعليل) ، والقدرة الأسلوبية (التعبيرية) ، ويمكن التعرف خلال هذه الاختبارات على مواطن

(*) الذكاء وتنميته لدى أطفالنا : سابق ، ص ٤١ .

القوة ومواطن الضعف في القدرات الأولية ومنها القدرة على إدراك العلاقات بين الأشياء، والقدرة على إيجاد حلول جديدة للمشكلات ، وغير ذلك من القدرات والمهارات مثل : سرعة الإدراك الحسي أو القدرة على التذكر .

هناك إذن مراحل خاصة بالنمو العقلي والنفسي تتوازى مع مراحل النمو الجسدي، وتبدأ هذه المراحل منذ الطفولة الباكرة . بل حتى منذ فترة الرضاعة، ومع ذلك فإن هناك عوامل كثيرة تؤثر في النمو عبر مراحله المختلفة . ويكون التأثير إيجابيًا أو سلبيًا وفقًا لطبيعة تلك العوامل .

وهنا يجب أن نذكر أنه : « يتأثر نمو الطفل العقلي بعوامل ثلاثة هي :

ضعف الصحة، أو أي عيب جسماني قد يؤثر تأثيرًا سيئًا على النمو العقلي. والبيئة المحدودة التي لا تتوفر فيها عوامل الحفز والتشجيع - كالمؤسسات والملاجئ - قد تؤخر النمو العقلي . وكذلك « التعطيل - الكف - الانفعالي » فعندما يعاني الطفل من توتر نفسي حاد أو صراع عنيف، فسوف يؤدي ذلك إلى تعطيل في النشاط الجسمي أو العقلي فلا يقدم الطفل كل ما لديه من قدرة ومن ثمة يبدو ذكاؤه في المواقف العملية أقل بدرجة كبيرة مما هو في الواقع ، لأن التوتر النفسي يعطل ظهور جزء كبير من الإمكانيات العقلية .

ولا بد إذن أن نعير هذه العوامل اهتمامًا زائدًا قبل أن نصدر حكمًا فاصلاً على الذكاء العام للطفل. ونضيف إلى هذا أن الثقة في اختبارات الذكاء بعد سن السابعة أكثر منها قبل هذه السن، ومردّ ذلك إلى أن تأثير العوامل الانفعالية في إنتاج الطفل العقلي أقوى إبان سني الطفولة الأولى منها إبان سني الطفولة الأولى - المتأخرة، التي تمتاز بطابع الهدوء ويكمون الدوافع الغريزية (*) » وعلينا أن نتذكر دائمًا أن المراحل الأولى للنمو الجسمي والعقلي هي المسئولة عما نحن عليه الآن من

(*) النمو النفسي : د. عبدالمنعم المليجى ، مكتبة مصر ، ص ١١٣ .

حيث الحالة العقلية عموماً، ومن ناحية القدرات والمهارات والذكاء خصوصاً، فنحن جميعاً نولد ولدينا الاستعدادات نفسها ، والقدرات العقلية ذاتها، ولكن ما ينمي استعداداتنا أو يجعلها تتدهور وترتكس هو البيئة وعواملها والتربية وأثرها، فقد نصادف بيئة تنمي مواهبنا وقدراتنا، وقد نصادف بيئة تتدهور بنا نتيجة التربية والمناخ الاجتماعي- الثقافي المعرقل لنمو القدرات العقلية التي نملكها بالفعل ويحول الواقع الاجتماعي- الثقافي دون ظهورها .

طرق تنمية الذكاء

رأينا أن علماء النفس قد اختلفوا اختلافاً بيِّناً في تعريف الذكاء.

بيد أن هذا الاختلاف يرجع إلى المنظور الذي تنظر به كل مدرسة نفسية إلى الذكاء. فاختلاف المنظور الذي يستخدمه كل عالم على حدة هو السبب في اختلاف سائر العلماء في تعريف الذكاء، ومع ذلك فقد كان هناك، ورغم الاختلاف ، ذلك الاتفاق العام حول تعريف الذكاء بأنه: « القدرة العقلية العامة التي يتمتع بها الإنسان ، كل إنسان، والتي تظهر في جميع نواحي النشاط المعرفي » .

ومن الواضح أن علماء النفس جميعاً ، على ما بينهم من خلاف حول الذكاء، يعتبرون الذكاء من أهم مكونات الشخصية. وهو كذلك بالفعل لما يؤديه من دور رئيسي في قدرة الفرد على التصرف في المواقف المختلفة، أو في التكيف - بالتالي - مع البيئة ومشاكلها وظروفها .

فالذكاء، إذن ، ليس قدرة موروثة. وإن كان للعوامل الوراثية أثرها في غرس وتوريث الاستعدادات الخاصة بالقدرات العقلية عموماً ، ومنها الذكاء ، وما دام الذكاء ليس قدرة موروثة - فحسب - فإن للبيئة أثرها كذلك في تنمية الذكاء خصوصاً والقدرات العقلية عموماً .

ويمكننا أن نحدد الوسائط والوسائل التي تقوم البيئة من خلالها بتنمية الذكاء فيما يلي :

أولاً : الوسائط

نعني بها وسائط خاصة بالتنشئة الاجتماعية المتكاملة، أي عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها عدّة جهات ومؤسسات اجتماعية يتجاوز أثرها ودورها ما تقوم به الأسرة من دور أساسي في عملية التنشئة الاجتماعية. ولسوف يتضح لنا أثر التنشئة الاجتماعية ودورها في تنمية الذكاء أو عرقلة نموه عندما نتذكر أن عملية التنشئة الاجتماعية هي هدفها الأساسي (تشكيل السلوك) من خلال التربية والتعليم . أي أن المجتمع يقوم بصياغة أفكارنا بهدف تشكيل سلوكنا الذي يجب أن يتوافق ويتكيف وفقًا للظروف والمعتقدات الاجتماعية التي توجّه أساليب التفكير وتحدد أنماط السلوك ومعايير القيم .

إذن «فالتنشئة، ببساطة شديدة، هي :عملية تحويل مادة إنسانية أولية إلى كائنات اجتماعية تم تلقينها أصول السلوك والتفكير في مختلف علاقات ومواقف الحياة، كما أنها أداة تنتقل من خلالها أنماط التفكير والإحساس والسلوك الاجتماعي إلى الأجيال الصاعدة خلال فترة زمنية عن طريق الأفراد الناضجين(*)». ومعنى ذلك هو أن : «البيئة الصالحة تستطيع أن تساعد ـ الذكي ـ على العمل إلى أقصى حد ممكن يسمح له به ذكاؤه هذا . فنحن نستطيع أن نطور الذكاء وأن نحسّنه وذلك بأن نساعد كل طفل على الإفادة من ذكائه إلى أقصى درجة ممكنة، فالتوجيه العاقل الرزين ، والفرص الطيبة التي يتيحها الراشدون للصغار لاكتساب خبرات التعلم، وما يسبغونه عليه من تشجيع ، كلها عوامل قد تمكن الطفل المتوسط من التفوق على طفل آخر، قدراته الطبيعية أعلى من قدراته وأكثر امتيازًا ، ولكن

(*) الذكاء وتنميته لدى أطفالنا : سابق ، ٥٦ .

عناصر اهتمامه لم تجد مثيراً يثيرها، وقدراته العقلية لم يعترضها ما يتحداها ويشحذها »(*) .

والسائط الخاصة بالتنشئة الاجتماعية تنضوي تحتها المؤسسات الاجتماعية التالية: الأسرة، والتعليم، والإعلام، والأحزاب، والمؤسسات الترفيهية، والأندية، والأصدقاء. أي أن المجتمع كله يشارك منذ البدء في عملية التنشئة الاجتماعية المتكاملة .

ثانيًا : الوسائل :

نعني بها كافة الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تنمية القدرات العقلية، وقدرة الذكاء خصوصًا ، وهي وسائل تختلف باختلاف الوسط، فالوسط المدرسي يختلف في الوسائل التي يستخدمها في تنمية قدرة الذكاء عن الوسط المنزلي .

لكن وبرغم اختلاف الوسائل باختلاف الأوساط البيئية، إلا أنه يمكننا أن نلاحظ أن كافة الوسائل تتمحور حول (النشاط) بمختلف صوره. فقد يكون هذا النشاط هو مجرد (اللعب) أو قد يتخذ هذا النشاط صوراً أخرى تتسع في مداها لتشمل الأنشطة الفنية، أو الأنشطة الترويحية، أو الأنشطة الرياضية أو الهوايات،أو النشاط التقني..إلخ .

والمهم أن هذه الأنشطة ليست مقصورة على مؤسسة اجتماعية دون سائر المؤسسات الأخرى، وإنما هي أنشطة تتكامل من حيث الممارسة، وتتواصل. ويجب أن تتم متابعتها على مستوى الأسرة والمدرسة والنادي وسائر المجالات الاجتماعية الأخرى .

وبمعنى آخر فإنه ما دمنا قد اعتبرنا (النشاط) هو جوهر الوسائل المتنوعة المختلفة التي نستخدمها في تنمية الذكاء، فإن علينا الاهتمام بتنمية مختلف

(*) القدرات العقلية عند الأطفال : ثماثيرستون، كاترين بيرن، ت: عبدالفتاح المنياوى، ص ٨٧ .

الأنشطة التي تؤدي بدورها إلى تنمية الذكاء ، وعلى كل مؤسسة اجتماعية أن تقوم بدورها في هذا الميدان، بحيث تتكامل الجهود الاجتماعية - في النهاية - وتؤدي إلى التنمية الحقيقية للذكاء، فإن التقاعس أو الإهمال من جانب مؤسسة اجتماعية من سائر المؤسسات يكفي لأن يهدر جهود المؤسسات الأخرى، وبالتالي يضيّع الفرص المتاحة لتنمية الذكاء .

والآن ، ما أهم وسائل تنمية الذكاء ؟

القراءة :

تعتبر القراءة من أهم الروافد التي تمدنا بالخبرة المعرفية، وهي بالتالي من أهم وسائل التعلم والتنشئة وتنمية الذكاء. وبسبب تلك الأهمية يجب أن يبذل الآباء جهودهم للتعرف على الوسائل التي تحبب القراءة إلى نفوس أطفالهم ، وأفضل الوسائل إلى ذلك هو (التنويع) في اختيار الكتب الاكثر قدرة على التشويق وإثارة الخيال مثل الكتب العلمية المبسطة في مختلف ميادين العلوم، أو القصص العلمية الخيالية، هذا بالطبع إلى جانب كتب الهوايات ، والكتب التي تنمي الميول والمواهب الخاصة للطفل .

بيد أن القراءة المنظمة أفضل من القراءة في ميادين مختلفة لا رابط بينها ، ومن الأفضل - كذلك - أن يهتم القارئ أو المربّي ببرمجة القراءة وفقًا لبرنامج تثقيفي مرحلي يضع في اعتباره تنمية الثقافة تدريجيًا ، دون القفز من مرحلة إلى ما بعدها قبل التأكد من تحصيل ثقافة المرحلة الحالية. وعلى البرنامج الثقافي الأمثل أن يتوخى إلى جانب الهدف التثقيفي العام عدّة أهداف خاصة بتنمية وبناء الشخصية والذكاء وتكوين الاتجاهات والميول والأفكار والفلسفات. وأفضل الكتب لتحقيق هذا الهدف هي كتب الثقافة النفسية المبسطة التي تقوم بدور المرشد النفسي الذي يهدي الناشئة والآباء معًا إلى أفضل السبل لتكوين الشخصية

السوية، والشخصية الذكية، وكذلك يقوم بدور المرشد لهم إلى أفضل الطرق لتحقيق التكيف ومواجهة مختلف المشاكل الخاصة بمختلف مراحل نموهم النفسي والذهني

على أن ما يجب أن نتذكره دائمًا هو : أن الهدف من القراءة هو تنمية قدراتنا ومواهبنا وإمكانياتنا بالتعلم، أي اكتساب الخبرات المعرفية الرئيسية التي من شأنها أن تساعدنا في مختلف مراحل حياتنا على : « تحقيق الذات المثالية » . على أنه يجب أن ننظر إلى الذات المثالية باعتبارها تلك الذات التي تمكنت من توظيف قواها وخبراتها لتحقيق أفضل وضع لها في الوجود .

اللعب :

من الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الآباء عمومًا ذلك الخطأ الذي يرتكبونه بفضل النظرة الخاطئة إلى (اللعب) . فهم لا يدركون - غالبًا - ما يؤديه (اللعب) من دور حيوي في تنشيط خيال الأطفال، وهم غالبًا ما يعتبرون (اللعب) إهدارا للجهد ومضيعة للوقت. بيد أن النظرة الصحيحة إلى (اللعب) هي تلك التي يعمل فيها الآباء على استغلال رغبة الطفل في (اللعب) لتنمية قدراته العقلية عمومًا، وتنمية قدرة الذكاء لديه خصوصًا .

وليذكر الآباء أن (اللعب) بالنسبة للطفل يقوم بدور (ترويحي) لا غنى عنه بعد قيام الطفل بجهد آخر في الدراسة مثلاً ، كما أن (اللعب) هو المخرج الوحيد أمام بعض المشاعر المكبوتة التي لا يستطيع الطفل التعبير عنها . وهي مشاعر تتحول نتيجة الكبت أو عدم التصريف في ميادين أخرى إلى طاقة نفسية تبحث عن متنفس لها ، فإذا كان (اللعب) هو هذا المتنفس الذي يصرّف الطفل من خلاله بعض طاقاته النفسية، فإن هذا المتنفس الذي يمكن للآباء استغلاله استغلالاً جيداً في تنمية قدرات ومواهب وذكاء أطفالهم أفضل بكثير من أن تتحول طاقات أطفالهم النفسية فيما إذا حيل بينهم وبين اللعب إلى طاقات سلبية أو إلى انطواء أو إلى ميول عدوانية .

والمهم هو كيف نتمكن من استغلال رغبة الطفل في اللعب لتنمية مواهبه، فالطفل يميل إلى نوع معين من اللعب، ويختلف الأمر بالطبع من طفل إلى آخر، المهم أن نستغل ميول الطفل وعشقه لنوع معين من الألعاب، ثم نوفر له المناخ الذي يمكنه من استهلاك فائض طاقته في اللعب، وفي نفس الوقت يستفيد الطفل من اللعب أيا كانت اللعبة التي يلعبها .

التقنيات والأنشطة الفنية :

قد يميل الطفل إلى أنواع من اللعب التي ينمي من خلالها خبرته التقنية، وهنا تظهر ميوله ورغباته في معرفة كل مكونات اللعبة التي يلعب بها فيقوم بتفكيكها بدافع من رغبة المعرفة. وعندئذ يجب أن يتنبه الآباء إلى ضرورة توفير الألعاب التقنية (القابلة للفك والتركيب) والميكانيكية والهندسية، كما يجب أن يركز الآباء على كتب الهوايات التقنية فيما يختص بقراءة هذا الطفل مع عدم إهمال بنود البرنامج التثقيفي الأخرى ومراحلها .

وقد يميل بعض الأطفال إلى الأنشطة الفنية : (الرسم، الموسيقى، التمثيل .. إلخ) دون غيرها، ويظهر أثر هذا الميل واضحاً في (اللعب) الذي يفضله الطفل. فهو عندما يلعب يكون اهتمامه مركزا على ميوله الفنية أكثر من الميول الأخرى وعلى استخدام الوسائل والأدوات التي تشبع تلك الميول دون غيرها، والمهم أن الميول الفنية شأنها شأن أي (نشاط) تؤدي تنميتها إلى تنمية مواهب وقدرات الطفل. ومنها قدرته على الذكاء .

الأنشطة المدرسية :

تتضمن تلك الأنشطة أغلب الأنشطة التي تناولناها سابقًا وهي: القراءة والأنشطة الفنية واللعب. ويمكن أن نضيف إلها « التربية البدنية » ثم « الصحافة المدرسية » .

فالتربية البدنية من أهم عوامل تنمية القدرات، عملاً بالمبدأ القائل : « العقل السليم في الجسم السليم » ، ولذا يجب أن نعتاد ممارسة الرياضة التي تناسبنا،

أو أن تقوم ـ على الأقل ـ ببعض التمرينات الرياضية الصباحية قبل الذهاب إلى المدرسة أو إلى العمل. فأقل ما نستفيده من التربية البدنية والأنشطة البدنية وتمريناتها الرياضية هو: تجديد النشاط واليقظة الذهنية، وليس من شك في أن النشاط من بواعث الحماس، وأن اليقظة من أهم لوازم التفكير المتميز، وأن الحماس واليقظة الذهنية معًا من أهم وسائل إظهار الذكاء من خلال الإنجاز العملي.

أما الصحافة المدرسية باعتبارها أحد الأنشطة المدرسية فإن التشجيع على الاشتراك العملي فيها يعتبر من أهم الوسائل لإظهار القدرات اللفظية والأسلوبية (الأدبية عمومًا) وهي إحدى القدرات المكوِّنة للذكاء. واشتراك الأذكياء خاصة الذين يتميزون بالقدرات الأدبية، في العمل الصحفي المبكِّر في المدرسة، يؤدي حتمًا إلى تنمية قدراتهم ومواهبهم.

الأنشطة الترويحية :

هي مجموعة من الأنشطة التي يمكن إضافتها إلى الأنشطة المدرسية ومنها : الهوايات الفنية الجماعية، والكشافة أو الجوالة، والرحلات، ومنها الأنشطة الترويحية الفردية التي لا ترتبط بالأنشطة المدرسية. والمهم هنا هو أن الأنشطة الترويحية من أهم المجالات التي يمكن أن توظف فيها الطاقات لشغل وقت الفراغ والاستفادة منه في تنمية المواهب والقدرات.

* * *

الذكاء إذن يمكن تنميته من خلال وسائط ووسائل بشرط وجود البيئة الصالحة لتنميته.

بيد أنه يمكننا أن نضيف إلى جانب شرط البيئة والمناخ المناسب لتنمية المواهب والقدرات ومنها قدرة الذكاء، ما يجب أن نتفهمه عن آلية عمل هذا الشرط، فالبيئة

المناسبة والمناخ الملائم لنمو المواهب والذكاء إنما يحفزان على نمو القدرات والمواهب .

إن الذكاء قدرة أو طاقة كامنة لدينا جميعاً ، وهي كأي طاقة أخرى لا تتحول إلى عمل إلا في وجود حافز مشجع أو مثير يستفزها ويتحداها ويشحذها . ونحن إنما نهيئ المناخ بالتنشئة حتي نوفر الحوافز اللازمة لظهور وتنمية المواهب والقدرات والإمكانات العقلية لدينا .

ماذا إذن يحدث لو لم يتوفر لنا المناخ المناسب لإظهار قدراتنا ومواهبنا وملكاتنا العقلية وفي مقدمتها الذكاء ؟ الإجابة هي : أن جميع قوانا ومواهبنا وملكاتنا تتدهور وتضمر، أو تتوقف عند مستوى معين لا تتجاوزه، والسبب هو ما يعرقل نمو تلك المواهب والقدرات والملكات في المناخ والبيئة. لذا كان شرط وجود (البيئة الصالحة) ـ دون غيرها من البيئات ـ من أهم شروط تنمية القدرات والمواهب والذكاء .

لكن ماذا نعني بالبيئة الصالحة ؟

البيئة الصالحة ـ في حدود موضوعنا ـ هي التي تكفل للكائن البشري أن ينمو ويتطور باستمرار في اتجاه تحقيق وجوده (الفردي) مستخدماً في سبيل ذلك كل طاقاته وملكاته ومواهبه وقدراته .

ومعنى ذلك أن (عرقلة أو إعاقة تحقيق الوجود الفردي) للكائن البشري هي عملية لا يقوم بها من المجتمعات والبيئات سوى تلك المجتمعات البدائية، أو المتخلفة، وأن نتيجة عملية الإعاقة الاجتماعية لتحقيق الوجود الفردي هي أن يمتلئ المجتمع بالمعوقين وجودياً والمرضى نفسياً، لأن الصحة النفسية ترتبط بتحقيق الذات. أما السبب الذي يدفع المجتمعات إلى عرقلة النمو والتطور الوجودي لأفرادها، فهو : «نسق الثقافة » السائد فيها. أي ما تنشئ تلك المجتمعات أفرادها عليه من أفكار

وعقائد وتقاليد وقيم تحدد ميول الأفراد واتجاهاتهم وشخصياتهم وسلوكهم وأفكارهم وبالتالي مستوى قدراتهم ومواهبهم وطموحاتهم .

* * *

معوقات تنمية الذكاء

يمكن تقسيم العوامل المعوّقة لنمو الذكاء إلى عوامل خاصة بالبيئة وأخرى خاصة بالفرد .

فأغلب العوامل الخاصة بالبيئة سببها (المناخ السيئ) - اجتماعياً، وقد ذكرنا من قبل أن أسباب سوء المناخ في مجملها أسباب ثقافية تتعلق بالنسق الثقافي السائد في المجتمع، وأغلب المشاكل المعوقة لتنمية الذكاء في المؤسسات الاجتماعية راجعة إلى هذا الأصل الثقافي، ويمكننا أن نرصد بعض هذه المعوقات في بعض تلك المؤسسات الاجتماعية وخاصة في مجتمعنا، على النحو التالي:

أولاً : الأسرة

فأغلب الأسر تنشأ على (ثقافة أبوية) دعامتها (السلطة المطلقة للرجل) . وهذه الثقافة الأبوية هي المسئولة عن كافة الممارسات الأسرية غير التربوية القويمة والصحيحة نفسياً، بل إن أغلب الأمراض النفسية في مجتمعنا ينشأ بسبب العلاقة الأسرية عموماً، والعلاقة الوالدية خصوصاً في مرحلة الطفولة، فإذا أضفنا إلى الثقافة الأبوية بعض العوامل السلبية مثل انحطاط الوعي التربوي والجهل التام بمراحل النمو النفسي والذهني من قبل الكبار فإن دائرة العوامل الأسرية المعوقة للنمو تكتمل خاصة في غيبة الترابط الأسري والتفكك الاجتماعي الذي يعانيه مجتمعنا نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وتردي الأحوال الاجتماعية والثقافية .

ثانيًا : التعليم

يمكن الرجوع بكل مساوئ الثقافة الأبوية في مجتمعنا إلى ثقافة أعم وأشمل هي النسق الثقافي السائد الذي ينتج الأفكار والعقائد والقيم والعادات، وهذا النسق الشامل الذي يشكل أيدلوجية اجتماعية ودينية وسياسية وثقافية هو الذي يمدّ سائر ثقافاتنا الفرعية في المجتمع العربي بالأفكار والقيم. فإذا كانت السمة الغالبة على هذا النسق الثقافي السائد في المجتمع هي (الازدواجية) التي تعني التناقض في التفكير بسبب الجمع بين منهجين للفكر في آن واحد، لأمكننا أن نتصور أو نفهم لماذا يتسم التعليم في مجتمعنا بنفس هذه السمة؟ أي أن التعليم يتسم لدينا (بالازدواجية) فهو كمؤسسة علمية لا يجب أن يتبنى سوى المناهج العلمية في التفكير والتعليم، بيد أن الواقع التعليمي العربي على النقيض من ذلك، إذ يجمع بين المنهج العلمي والمنهج الديني في نفس الوقت، وينعكس أثر هذه الازدواجية بشكل تربوي على مختلف الأجيال في مختلف مراحل التعليم. والنتيجة هي أننا نربي ونعلم وننشئ الأجيال على نفس الازدواجية التي تغرس في النفوس محنة الانقسام والازدواج والفصام .

وبالطبع لا ينتظر للمؤسسة التعليمية التي تكرس لمناخ يمهد تربويًا وفكريًا لظهور الانقسامات الشخصية والفصام والازدواج (أي المرض النفسي) أن تعمل على تنمية القدرات العقلية عمومًا وقدرة الذكاء خصوصًا . أضف إلى ذلك أن التعليم عندنا يتسم بالشمولية والجماعية دون مراعاة لفروق الأفراد أو قدراتهم ومواهبهم، بيد أنه كان ينبغي أن يقوم على دراسات واختبارات لقياس قدرات التلاميذ لتحديد نسبة الذكاء، وبالتالي لتقديم المناهج والعلوم بالأساليب المناسبة لكل مستوى عقلي حتى نرتقي بهذا المستوى إلى أقصى درجة ممكنة. وفضلاً عن هذا كله فإن التعليم لدينا يقوم على الحفظ والتلقين متعمداً قتل ملكات التحليل وقدرة الفهم والإبداع والمناقشة والنقد.

والخلاصة هي أن التعليم عندنا قائم على التلقي والحفظ والتلقين، وهذه الوسائل من شأنها أن تقتل الملكات والقدرات الذهنية ، حتى في أكثر مجالات التعليم اعتماداً على القوة الفكرية، وأعنى بذلك مجال الفلسفة . ·

فمن الملاحظ أننا في التعليم الفلسفي (نتلقى) الأفكار والمذاهب ويطلب إلينا حفظها. إذ ليس المهم في تعليمنا أن نبدع وأن نخرّج لمجتمعنا من الأجيال من نستطيع أن نصفهم بحق بأنهم فلاسفة، بل المهم هو أن نحفظ ونتلقى عمن نستورد منهم فلسفاتهم ما تم استيراده من مذاهب وأفكار فلسفية. وهكذا نتلقى ونحفظ ونتقبل دون مناقشة أو نقد، ومن ثم دون إبداع أو إضافة، لأننا قتلنا ـ بنمط التعليم السائد ـ كل ملكات النقد والابتكار والتحليل والإبداع والإضافة ... إلخ .

فالازدواج الذي يؤدي إلى الفصام النفسي هو سمة الثقافة المسيطرة والمنتجة للفكر والسلوك معًا في مجتمعنا، لذا فأغلب مؤسساتنا الاجتماعية يحكمها نفس الازدواج. وهي حين تمارس مهامها الاجتماعية فهي إنما تعيد إنتاج وتكريس نفس الازدواج والفصام النفسي والذهني .

بيد أن ثمة عوامل أخرى تعرقل نمو الذكاء في مجتمعنا، إضافة إلى الثقافة التي نشأنا عليها، ومنها: تردي الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وتزايد السكان وتفاقم المشاكل والتفكك الاجتماعي وانهيار القيم وغياب القدوة في كافة ميادين النشاط الاجتماعي .

هذا بالنسبة إلى المعوقات التي تعوق نمو الذكاء اجتماعيًا،أما تلك المعوقات الفردية التي تعوق نمو الذكاء فيمكن تقسيمها بدورها إلى معوقات وراثية، وأخرى صحية (بدنية) أو نفسية ، لكن قبل الانتقال إلى معوقات نمو الذكاء الفردية، يحسن بنا القول: إن علماء النفس قد قسموا المجتمع من حيث ذكاء الأفراد فيه إلى فئات كمية، وأنهم قد توصلوا إلى تحديد النسبة المئوية لكل فئة من تلك الفئات

على النحو التالي:

النسبة المئوية	نسبة الذكاء
١ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(٧٠ ـ فأقل) : ضعاف العقول
٥ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(٧٠ ـ ٨٠) : أغبياء
١٤ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(٨٠ ـ ٩٠) : دون الوسط
٦٠ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(٩٠ ـ ١١٠) : متوسطو الذكاء
١٤ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(١١٠ ـ ١٢٠) : فوق المتوسط
٥ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(١٢٠ ـ ١٤٠) : أذكياء
١ ٪ من أفراد المجتمع نسبة ذكائهم	(١٤٠ ـ فأكثر) : عباقرة

ويمكننا أن نتفهم هذا التقسيم المئوي إذا قارناه بالتقسيم الذي وضعه علماء النفس ـ بعد دراسة ـ لمقارنة السن العمرية بالسن العقلية في السنوات الأولى للطفولة على النحو التالي :

المستوى العقلي	بدء المشي بالأشهر	بدء الكلام بالأشهر
ـ أطفال أذكياء جداً	١٣	١١
ـ متوسطو الذكـــاء	١٤	١٦
ـ أغبيــــــــاء	٢٢	٣٤
ـ معتوهـــــــون	٣٠	٥١

ومن الواضح أن علماء النفس قد انتهوا ـ وفقاً لتلك التقسيمات ـ إلى نظرة محددة لمستويات الذكاء في المجتمع .

وهم وفقاً لنظرتهم تلك، عندما يتحدثون عن الذكاء العام، أو تنمية قدرة الذكاء فإنما يقصدون الذكاء الاجتماعي العام الذي نتمتع به جميعاً، ولا يقصدون الذكاء المرتفع جداً أو العبقرية .

ونحن كذلك، عندما نتحدث عن معوقات تنمية الذكاء، فإنما نقصد بالذكاء - في حديثنا - ذلك العام الذي تناوله علماء النفس في تقسيماتهم لمستويات الذكاء في المجتمع، ولقد تحدثنا عن معوقات الذكاء وتنميته من الناحية الاجتماعية - حتى الآن - فما معوقات تنمية الذكاء من الناحية الخاصة بالأفراد ؟

أولاً : الوراثة

لقد قلنا إننا نرث ميولنا واستعداداتنا من أسلافنا وأجدادنا وآبائنا ، وإن ما نرثه من استعدادات يظل كامنًا إلى أن يجد من البيئة ما يثيره ويحركه ويدفعه إلى الظهور فيتحول إلى (سمة غالبة) دون سائر استعداداتنا الأخرى .

بيد أن الاستعدادات الموروثة ليست كلها استعدادات إيجابية، وهناك إلى جانب القدرات والمواهب التي نرثها ، قدرات سلبية، فنحن كما نرث الذكاء أو استعداد الذكاء نرث أيضًا الغباء أو ضعف القدرات العقلية، أو على الأقل الاستعداد للخمول والضعف العقلي .

وتظل وراثتنا للقدرات السلبية، شأنها شأن القدرات الإيجابية، كامنة في انتظار فعل البيئة والتنشئة الاجتماعية، ويقوم المجتمع بدوره في تحفيز تلك القدرات على الظهور لا سيما إذا تضافرت جميع المؤسسات الاجتماعية على تنمية القدرات السلبية الموروثة دون غيرها من القدرات الإيجابية .

الوراثة إذن تؤدي الدور الرئيسي في عملية الذكاء، ولكن يجب أن نؤكد مرارًا وتكرارًا أن :الوراثة ليست وحدها المسئولة عن ظهور الذكاء ونموه، إذ يجب أن تتضافر عدة عوامل مع العامل الوراثي في عملية الذكاء، سواء من حيث ظهوره أو تنميته، ومن تلك العوامل: العوامل الاجتماعية، أو الصحية، أو النفسية، أو الثقافيـــة .

كما أن هناك عوامل أخرى خاصة بالفرد نفسه، أو على وجه الدقة: خاصة بنمط تفكير الفرد وبنظرته إلى نفسه وقدراته ومواهبه والكيفية التي يستخدم بها هذه القدرات وتلك المواهب. وسوف نتناول هذا العامل (الذاتي) فيما بعد .

ثانيًا : البنية الجسمية

من العوامل الأخرى المعوقة لنمو الذكاء ضعف البنية الجسمية، أو الأمراض الجسمية التي تصيب الجسم وتؤثر على النشاط البشري عمومًا . فقد يولد المرء مزودًا بالقدرات العقلية الممتازة، ومنها قدرة الذكاء، ومع ذلك فإنه لا يتمكن من إظهار تلك القدرات لسبب أو لآخر من ضعف البنية الجسدية أو اعتلال الجسد بالأمراض . ونحن إذا تحدثنا عن الأمراض البدنية فلا نعني بها الأمراض البسيطة غير المزمنة أو الخطيرة، وإنما نعني بها تلك الأمراض التي يمكن أن تؤثر - في المدى البعيد - على النشاط العصبي للإنسان ، مثل الزهري وغيره .

بيد أن ضعف البنية الجسدية وحده يكفي ليؤثر على مجمل النشاط البشري، بل يمتد أثره إلى النشاط العصبي والذهني. فالجسد المنهك لا يتحمل بذل الكثير من الجهد العصبي والفكري، بل إن الجهد الذهني يضني الجسد الضعيف البنية كما تضنيه الأعمال البدنية الشاقة. ويظهر أثر الضعف الجسدي واضحًا - على المدى البعيد - في ضعف التركيز أو عدم القدرة على حصر الفكر أو الشرود والتشتت الذهني ، وتلك كلها من العوامل المؤثرة سلبيًا في إعاقة نمو قدرة الذكاء .

ويمكن أيضًا أن نضم إلى العوامل المرتبطة بضعف البنية الجسمية بعض العوامل الفسيولوجية مثل : الاختلالات الهرمونية. فإن ازدياد إفراز هرمون معين أو نقص إفراز هرمون معين في الجسم يؤدي بالتالي إلى حدوث اضطرابات واختلالات يظهر أثرها في مجالي الجسم والنفس معًا .

فالاضطرابات الفسيولوجية إذن ذات أثر مباشر في الحياة النفسية للإنسان، واضطرابات الحياة النفسية - بدورها - تؤثر في نمط الشخصية ومزاجها

ومشاعرها وانفعالاتها . وعندما يتم التأثير العصبي على هذا النحو السالب فلا بد من تأثر القدرات العقلية عموماً ، ومنها قدرة الذكاء .

ثالثاً : العامل الذاتي

ونقصد بالعامل الذاتي نظرة الإنسان إلى نفسه، وهي نظرة تكونها ثقافته التي نشأ وتربى عليها. ومن مكوناتها المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد والقيم إلخ . فالمرء يبتغي أن يكون دائماً في تواؤم مع البيئة ومع الأفكار والمعتقدات السائدة فيها، ومن ثم يندفع المرء - دوماً - إلى مطابقة ذاته ونمط تفكيره مع السمات التي تعتبرها الثقافة السائدة السمات المثلى للشخصية الاجتماعية .

وغني عن القول، ان ميولنا واتجاهاتنا وفلسفاتنا تشكلها الثقافة السائدة في المجتمع، ومن هنا تنشأ لدى الأفراد رغبة المقاومة الشديدة للأفكار الجديدة أو المخالفة للأفكار السائدة في المجتمع، خاصة الأفكار الدينية، فنحن نتقبل بعض الأفكار ونرفض غيرها، ليس بناء على الفكر والنقد والتحليل لما نقبله أو نرفضه من أفكار، وإنما بناء على مدى التوافق أو التنافر بين الأفكار التي تعرض علينا فنقبلها أو نرفضها وبين أفكارنا وعقائدنا التي تشكل الإطار العام للنسق الثقافي السائد في المجتمع .

والخلاصة هي أن النمط الثقافي السائد في المجتمع يحدد لنا القالب العقائدي الذي يجب علينا الالتزام به وعدم الخروج عليه، والدفاع عنه إزاء الأفكار الأخرى، وهو بذلك ينمي (قدراتنا السلبية) ومنها على سبيل المثال لا الحصر : الاتباعية في مقابل الإبداعية، والتقبل والتسليم في مقابل النقد والتحليل . وغني عن القول أن الاتباعية وضمور القدرة النقدية والقدرة الإبداعية من أهم أسباب التعصب العقائدي في مجتمعنا، وهو أولى الخطوات إلى التطرف، أضف إلى ذلك أن الاتباعية التي ينميها النسق الثقافي لمجتمعنا في نفوسنا تقتل قدراتنا الإبداعية والعقلية ومنها قدرة الذكاء .

بل لا أبالغ إذا ذهبت إلى أبعد من ذلك في القول بأن الأثر السيئ لنمط ثقافتنا العربية يتجاوز قتل القدرة الإبداعية والعقلية لدي الأفراد إلى ما هو أبعد من ذلك وأخطر بكثير وهو: محو الفردية والذاتية ، إذ إننا عندما نشير إلى المبدع أو الذكي فإننا نشير إلى (فرد بعينه)، إلى شخصية تتميز بالذكاء أو الإبداع .

صحيح أن كل فرد ينتمي إلى ثقافة ـ بالضرورة ـ وأنه لا سبيل على الإطلاق إلى الانفلات من أسر الثقافات وأثرها في تكوين الشخصيات والميول والمشارب والأفكار والاتجاهات، بل إن القدرات العقلية والذهنية لا تنمو ولا ترتقي إلا بالخبرات المعرفية والثقافية. إنما الفارق هنا في نوع الثقافة ذاتها، وفي مضامينها الفكرية التي تنشئ عليها الأفراد ، فنحن كما نفكر .. نكون .

فإذا كانت ثقافتنا تنشئنا على قيم الإبداع والاستقلال والنقد والتحليل والتفكير والتحرر والتفرد، أي أنها في النهاية تبني عقولنا وتصوغها لتفكر وفقًا لمنهج التفكير العلمي، فإننا بدون أدنى شك سوف ننشأ على ما تشربناه من قيم ومضامين ثقافية أي أن ذواتنا وشخصياتنا لا بد أن تتسم بالاستقلال :الوجودي والاجتماعي والفكري. ولا بد أن يتسم تفكيرنا بالموضوعية فلا يتعصب ولا يتقبل سوى الأفكار العلمية، ولا يرفض سوى الخرافات، بل إننا لن نقبل أو نرفض الأفكار إلا بعد فحصها وتحليلها ونقدها .أما إذا كانت ثقافتنا تنشئنا على قيم: الاتباع والتقبل الأعمى دون تفكير. ولا تسمح لنا بالخروج على الجماعة في نمط تفكيرها ومضامين وأساليب هذا التفكير، فإننا بدون شك سوف ننشأ نشأة تابعة، فلا تكون لنا شخصية مستقلة، أو ذاتية تشير إلى فرديتنا وخصوصيتنا، ولا شك في أننا لن نفكر وفقًا لمنهج التفكير العلمي، بل إننا سوف نتعصب لأفكار ثقافتنا حتى وإن كانت أفكارها أسطورية لاتتناسب مع منطق التفكير العلمي للعصر ولاشك كما قلنا في أن الثقافة هي التي تشكل شخصيتنا ونظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم من حولنا، فأما ثقافتنا فإنها على النقيض تمامًا من ثقافة العصر في نظرتها

إلى العالم نظرة علمية، يقول « بلانشيه » في كتاب « العلم الفيزيائي » : « إن الإصلاح الذي أحدثه تطبيق طريقة التفكير الرياضي على فهمنا للواقع يقترن إذن بتغير أساسي في نظرتنا إلى الواقع وعلاقته بالروح. فلم يعد الواقع نقطة بداية، بل أصبح حداً نهائياً للمعرفة. ولم يعد يعطي للحساسية عن طريق صفات جوهر بل إن العقل هو الذي يركبه بأن يجعل منه نسقاً من العلاقات. وهكذا تتحقق في ميدان المعرفة وميدان الوجود تلك الثورة (الكوبرنيكية) التي كان التعبير الفلسفي عنها هو : أن الأشياء من الآن فصاعداً هي التي تدور حول الروح بما لهذه من جاذبية (*) » .

وينعكس طابع ثقافتنا الأسطوري - بدوره - على نظرتنا الذاتية لقيمة العقل وحدوده. فنحن غالباً ما ننسب إلى العقل محدودية وقصوراً يحطان من قدره وينعكس أثر هذه النظرة على طريقة استخدامنا للعقل. وهي طريقة بالطبع سلبية لا تسمح للعقل باستخدام كامل طاقاته .

وعلى سبيل المثال هناك عدّة خطوات إذا التزمنا بها لكان أثرها في تنمية القوّة الفكرية والذكاء لدينا عظيماً، بيد أننا لا نلتزم بها في الواقع بسبب نظرتنا إلى العقل وبسبب نسقنا الثقافي الذي يحكم طريقة تعاملنا مع أنفسنا ومع العالم. وهذه الخطوات هي :

(*) نظرية المعرفة : د. فؤاد زكريا ، مكتبة مصر ، ص ٤٧ .

الرغبة :

إذ لا بد من أن تتوافر لدينا الرغبة في أن نصبح مفكرين جيدين، بيد أن أهم عوامل قتل الرغبة في تنمية القوّة الفكرية والذكاء لدينا هو اعتقادنا بأننا نملـــك ـ بالفعل ـ درجة كافية من قوّة الفكر ومن الفطنة والذكاء . وبالتالي فإننا لا نبذل الجهد في سبيل امتلاك القوّة الفكرية أو من أجل تنمية الذكاء سواء بالتعلم من الكتب أو الغير . إذ من الميسور جداً لدينا أن نشك في قدرات الغير ومواهبهم وأن نتهمهم بالغباء، بينما من الصعب جداً أن نعترف بقصور قدراتنا العقلية ومواهبنا، وحتى إذا أثبتت المواقف العملية قصورنا فإننا نلقي بأسباب هذا القصور على الغير وعلى الظروف. وما دمنا لا نعترف بحاجتنا الدائمة إلى تنمية قدراتنا العقلية فإننا لن نرغب في تقوية ذهننا وذكائنا، ولا شك أنه إذا انعدمت الرغبة في تنمية القدرات فإن مصير قدراتنا هو الضمور والخمول والموات .

الانتباه :

ونتيجة الاعتقاد في اكتمال قوانا وقدراتنا العقلية فإننا نقوم بأعمالنا ، أيا كانت بغير اكتراث، أو على الأقل نؤدي أعمالنا بآلية تصرفنا عن التفكير فيما نؤديه بشكل جيد، وتصرفنا هذه الآلية بالتالي عن إدراك جوانب العمل الذي نقوم به على الوجه الأكمل، إذ إننا نؤدي كل شيء، مهما صغر أو عظم بآلية مثل: الأكل والتنفس والمشي تماماً ، بل إننا نفعل مثل ذلك مع التفكير أيضاً ، فلا نراقب أنفسنا ولا نراقب الآخرين وهم يفكرون، لكن إذا انتبهنا لأفكارنا والطريقة التى نفكر بها . وقارناها بأفكار وطريقة تفكير الآخرين من المفكرين والأذكياء لاكتسبنا مهارة التفكير والذكاء، وهنا بالتحديد، في مجال عدم الانتباه. يتضح لنا إلى أى مدى تسوقنا نظرتنا إلى الذات والعالم والعقل، وهي بالطبع نظرة مشتقة من ثقافتنا، بل يتضح أكثر أنها تسوقنا إلى ممارسة الوجود بشكل فادح من عدم الانتباه واللامبالاه .

استعمال العقل :

يؤدي عدم الانتباه إلى ضعف التركيز، وتؤدي الآلية إلى الانفعالية ، وإلى التصرفات القائمة على ردود الفعل الانفعالية لا علي العقل والتفكير ، وبالتالي فإننا نتصرف في كل شيء آليًا، أو اعتمادًا على ردود الفعل الانفعالية لا العقلية. وذلك - بالطبع - يؤدي إلى تضاؤل وظيفة التفكير وضمور ملكة الذكاء .

لذا يجب أن ندرب أنفسنا - يوميًا - على التفكير في مشكلة من المشاكل، أو مسألة من المسائل الفكرية أو السياسية أو الفلسفية ، فإن التدريب اليومي على التفكير يغلِّب العقل على العاطفة عند مواجهة المشاكل، أو في الحياة اليومية عمومًا مهما اختلفت ظروفها ومواقفها .

تعلم أساليب التفكير :

بعد البدء في محاولة استخدام العقل ، يجب أن نتعلم كيف نفكر ؟

فإن لكل تفكير مجموعة من الخطوات، وتختلف كل مجموعة من الخطوات عن غيرها من المجموعات الأخرى . وفقًا لاختلاف أساليب التفكير التي يجب علينا الإلمام بها واستخدامها في عمليات التفكير التي نقوم بها، فالتفكير العلمي مثلاً يختلف في أسلوبه ومنهجه عن التفكير الفلسفي . وباختلاف الأسلوب والمنهج تختلف - بالتالي - خطوات التفكير التي يجب الالتزام بها في كل تفكير على حدة .

التمرّن على أساليب الفكر :

علينا بعد معرفة أساليب وأنماط ومناهج التفكير أن نداب في تمرين أنفسنا على استخدامها حتى نكتسب الطلاقة، فإذا اكتسبنا الطلاقة، والمرونة في استخدام تلك الأساليب تمكنا - بالتالي - من اكتساب مهارة التفكير العلمي أو التفكير الفلسفي .

ومن الملاحظ أن أغلب هذه الخطوات، عدا الخطوة الأولى، خاصة ما يتعلق منها باعتقادنا الجازم بأننا نملك القدرة العقلية الكافية والذكاء الفائق، أقول إننا لا نقوم بممارسة أغلب هذه الخطوات، وعدم قيامنا بها يعتبر من العوائق الذاتية التي نخلقها بأنفسنا لعرقلة وإعاقة عملية نمو الذكاء . فمن منا تساءل عن مدى انتباهه أثناء التعامل مع شتى الموضوعات والمواقف الحياتية أو الفكرية ؟ ومن منا اهتم بتنمية ذكائه أو اهتم بمعرفة أساليب التفكير ومناهجه ؟

الواقع أن عدم اهتمامنا بكل هذا يرجع كما قلت إلى اعتقادنا الذاتي بأننا نفكر جيداً وأننا أذكياء بالقدر المناسب الذي يكفي لخوض معركة الحياة. ومن ثم فإن اعتقادنا هذا يدفعنا دفعاً إلى إهمال قدراتنا العقلية سواء من حيث استخدامها الاستخدام الصحيح والأمثل. أو من حيث الاهتمام بتنمية تلك القدرات والمواهب، ومن ثم تضمر قدراتنا وتذوي مواهبنا فنسرع ـ بعدها ـ إلى البحث عن أسباب فشلنا ونلقي اللوم على الواقع وعلى الآخرين .

* * *

مقاييس واختبارات الذكاء

لقد حاول كثير من علماء النفس القيام بقياس الذكاء فوضعوا لذلك عدّة مقاييس كان الهدف منها التمكن من قياس نسبة الذكاء بطريقة كميّة، وتعرف تلك المقاييس بأنها اختبارات هدفها اختبار مجموعة القدرات المختلفة التي يتكون منها الذكاء خصوصاً ، والقدرات العقلية عموماً .

ومن المعلوم أن اختبارات الذكاء المتعارف عليها والتي نستخدمها اليوم في قياس القدرات العقلية على المستوى العالمي، هي اختبارات من وضع وتصميم علماء ينتمون إلى الغرب، فالواقع أنه رغم الحديث الطويل عن السبق العلمي للعرب في مجال العلوم عموماً ، إلا أننا إذا بحثنا في التراث العربي عموماً، وفي موضوع الذكاء خصوصاً ، فإننا لن نجد مايشير - إطلاقاً - إلى أن العرب قد استخدموا مثل هذه المقاييس الكمية كقياس الذكاء . وقد نجد عدة تعريفات شديدة العمومية للذكاء من خلال مظاهره، فهي بالتالي ليست تعريفات علمية دقيقة، بل إن النظرة العربية إلى (الذكاء) في ذاته تنطبع بالطابع السلبي لقيم الثقافة العربية. وعلى سبيل المثال نجد « ابن الجوزي » في كتابه « الأذكياء » يقول عن علامات العقل والذكاء:

« إن من علامات العقل لدى العاقل : أنه لا يتم عقل امرئ إلا بعشر خصال: الكبر منه مأمون، والرشد فيه مأمول، يصيب من الدنيا القوت، وفضل ماله مبذول، التواضع أحب إليه من الشرف، والذل أحب إليه من العزة، لا يسأم من طلب الفقه

طوال دهره، ولا يتبرم من طلب الحوائج من قبله، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، والخصلة التي بها مجده وأعلى ذكره : أن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه شرهم، وإن رأى خيراً منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى شراً منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا ! ومن علاماته أيضاً (أي العاقل الذكي) أنه: « يتواضع لما فوقه، ولا يزدري من دونه، يمسك الفضل من منطقه، يخالق الناس بأخلاقهم، ويحتجز الإيمان فيما بينه وبين ربه عز وجل، فهو يمشي في الدنيا بالتقية والكتمان » .

وتلك سمات العاقل الذكي في التراث العربي: أن الذل أحب إليه من العزّة، وهو (منافق) يخالق الناس بأخلاقهم وإن كانت فاسدة، وهو (جبان) يمشي بالتقية حتى لا يبدي المخالفة للغير فينقمونه .

وبرغم هذا يرى بعض الكتاب أن كتاب « الأذكياء » لابن الجوزي: « كتاب فريد تنبعث حكمة العالم كله من بين ثناياه » ! وهم يعتبرون ابن الجوزي أفضل من ألّفَ من العرب في موضوع الذكاء .

فإذا حاولنا أن نبحث بين العرب عن مؤلف غير ابن الجوزي الذي يرى في الذل سمة من سمات الذكاء لما وجدنا في تراثنا العربي كله منهجاً علمياً لدراسة الذكاء، ولا طريقة علمية لقياسه. فالمعروف أنه : « لم يذكر المؤرخون والكتاب تفصيلاً دقيقاً ـ عن طريق اختبارات الذكاء التي كان يستعملها العرب ـ وكل ما ورد إلينا عنها، أن المربين كانوا يعتمدون على التجربة، فهم يعلمون الطفل ثم يقومون بالحكم عليه، بمقدار النتيجة التي يستطيع أن يحصل عليها، كما كانوا يختبرون ذاكرة التلميذ ليروا إذا كان يميل إلى الحفظ أو التعمق والتفكير، فإن كانت الأولى فليدرس علم الحديث مثلاً ، وإن كانت الثانية فليدرس الفلسفة والمناظرة وعلوم الجدل والكلام»(*) والخلاصة هي أننا لم نكن نملك من قبل منهجاً لدراسة نفسية عموماً، أو منهجاً

(*) التربية الإسلامية، نظامها فلسفتها تاريخها: د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٣٠٠ .

لدراسة واختبار الذكاء خصوصاً . وأغلب ما درسناه في هذا المضمار يعتمد، شأنه شأن غيره من العلوم، على ما أنتجته قرائح علماء الغرب ..

* * *

ولسوف نحاول هنا أن نتعرف على مقاييس واختبارات الذكاء المختلفة .

انواع اختبارات الذكاء :

من أشهر أنواع اختبارات الذكاء المستخدمة في مجال علم النفس، اختبار (ستانفورد ـ بينيه) للذكاء، واختبار (وكسلر) للذكاء، والاختبار الأول، اختبار (بينيه) لا يقيس مستوى الذكاء العام للكبار، إنما هو من الاختبارات المخصصة لقياس مستوى ذكاء الأطفال .

لقد قام بوضع هذا الاختبار عالم النفس الفرنسي (ألفريد بينيه) عام ١٩٠٥ ثم أجريت عليه عدّة تعديلات ـ فيما بعد ـ أهمها ما قام به عالم النفس الأمريكي (ترمان) في جامعة ستانفورد، لذا أطلق على هذا الاختبار اسم اختبار (ستانفورد. بينيه) للذكاء .

وهذا الاختبار عبارة عن مجموعة من الأسئلة المتدرجة في الصعوبة، تمثل كل مجموعة منها عمراً عقلياً معيناً، فإذا تمكن الطفل من الإجابة الصحيحة عن الأسئلة المخصصة لعمر (١٠ سنوات) مثلاً . فإنه يحصل على درجة هذا العمر الذي يصبح هو عمره العقلي، بغض النظر عن عمره الزمني ، إذا كان أكبر أو أقل من ذلك .

فإذا كان العمر العقلي أكبر من العمر الزمني كان الطفل ذكياً . وبالعكس، ويمكن تحديد نسبة الذكاء بالمعادلة الآتية على النحو التالي :

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠$$

ـ فإذا كانت نسبة الذكاء تساوي (١٠٠) أو تقترب من ذلك، يوصف الطفل بأنه (متوسط الذكاء) .

ـ وإذا زادت نسبة الذكاء على (١٠٠) فإن الطفل يوصف بأنه (متفــوق).

ـ أما إذا قلت نسبة الذكاء عن (١٠٠) فإن الطفل يوصف بأنه (متخلف) .

أما الاختبار الثاني فقد وضعه (وكسلر) عام ١٩٣٩ بعد أن تنبه إلى عدم كفاءة وملاءمة مقياس ستانفورد ـ بينيه لقياس ذكاء الراشدين، وبالإضافة إلى هذا المقياس الذي يقيس ذكاء الكبار فقد وضع (وكسلر) أيضاً عدة مقاييس لقياس ذكاء الأطفال .

اختبار وكسلر :

يتألف اختبار (وكسلر) للذكاء من قسمين هما : القسم اللفظي والقسم العملي .

القسم اللفظي :

يتألف من اختبارات تقيس الجوانب اللغوية في سلوك الإنسان، مثل المعلومات العامة، والفهم العام، والمفردات اللغوية .

القسم العملي :

يتألف من اختبارات أدائية، مثل : رسم المكعبات وتشكيل الصور وتجميع الأشياء.

أما بالنسبة لاختبار ذكاء الطفل فإنه : « تسمى الدرجة التي يحصل عليها الطفل في اختبار الذكاء العام « نسبة الذكاء » أو I.Q وهو اصطلاح نسمعه كثيراً هذه الأيام ، لكن ما معناه ؟

عندما يجرى للطفل اختبار في الذكاء العام، يكون مجموع الدرجات الكلي الذي يحصل عليه هو « عمره العقلي » مقدراً بالشهور. فإذا أردت أن تعرف عمره العقلي مقدراً بالسنين، قسمت عدد هذه الشهور على (١٢) . فمثلاً إذا حصل (س) على ٦٧ درجة ، أو شهراً ، كان عمره العقلي هو خارج قسمة ٦٧ على ١٢ ، أو ما يساوي خمس سنوات وسبعة أشهر . وهذا الرقم لا يعني شيئاً إلا إذا أخذ عمر الطفل (س) في الاعتبار .

ولكي تثبت العلاقة بين عمر الطفل العقلي وعمره الزمني،اتخذ هذا الاصطلاح I.Q أساساً ، وهو نسبة الذكاء. ويمكن استخراج هذه النسبة بقسمة عمر الطفل الحقيقي مقدراً بالشهور على عمره العقلي، ثم تضرب الناتج في (١٠٠) (*) لكي يمكن القول عموماً بأن أغلب مقاييس واختبارات الذكاء تهدف إلى تحديد مستوى القدرات العقلية التي يتمتع بها من نطبق عليهم اختبارات الذكاء وأهم تلك القدرات :

القدرة اللغوية :

تتمثل هذه القدرة في المعرفة الشاملة للغة، أي المعرفة التي تم تحصيلها بالفعل، إضافة إلى فهم معاني الألفاظ وتراكيب الجمل، وتعتبر تلك القدرة من أكثر القدرات المسئولة عن الفروق الفردية بين الأفراد في النشاط العقلي بعد الذكاء .

القدرة الرياضية :

وهي قدرة ترتبط بفروع الرياضة الثلاثة : (الحساب ، الجبر ، الهندسة) ومنها :

ـ القدرة الحسابية :

هي تتطلب قدرات أبسط مثل القدرة العددية والقدرة الاستدلالية التي تتمثل في : (الاستقراء والاستنباط) .

ـ القدرة الجبرية :

هي تتطلب وجود القدرتين الاستدلاليتين (الاستقراء والاستنباط) بالإضافة إلى القدرة العددية .

ـ القدرة الهندسية :

هي تعتمد على القدرتين الاستدلاليتين السابقتين بالإضافة إلى القدرة المكانية .

(*) القدرات العقلية لدى الأطفال : ثماثيرستون، كاتيرين بيرن، ت: عبدالفتاح المنياوى ص٤٨ .

القدرة الحركية :

وهي قدرة تتمثل في الاستجابات الحركية، مثل : السرعة والتآزر والدقة، وتشمل المهارات اليدوية مثل حركات اليد التي تتطلبها بعض المهن كقيادة السيارات أو العزف على البيانو (مثلاً) . وتقاس القدرة الحركية بأجهزة خاصة مثل (الدينامومتر) الذي يقيس قدرة قبضة اليد .

القدرة الكتابية :

هي قدرة مركبة، أي تتألف من عدّة قدرات متراكبة، وتقوم على عدّة عمليات منها:

- اكتشاف الأخطاء في الأسماء والأعداد .
- إجراء العمليات الحسابية بسرعة ودقة ماهرة .
- معرفة معاني الكلمات ومفرداتها وفهم القراءة بمختلف الأساليب البلاغية .
- معرفة القواعد النحوية واستخدامها الصحيح .
- السرعة والدقة في الفرز والتصنيف .

القدرة الفنية :

تشمل القدرة على أداء الفنون البصرية المختلفة، وقدرات الإبداع الفني ، وتذوق الأعمال الفنية . فهي قدرة أدائية أولاً ، لكنها تكشف عن الخبرة الجمالية في نفس الوقت أثناء الاختبار .

القدرة الإبداعية :

تهتم الاختبارات الخاصة بها بالتركيز على الجوانب المختلفة للسلوك الإبداعي، وخاصة الطلاقة والمرونة والأصالة.

القدرة الموسيقية :

هي كالقدرة الكتابية، قدرة مركبة، تتضمن عدة قدرات حسية وإدراكية وأدائية .

* * *

لقد تكلمنا إلى الآن عن اختبار ستنافورد ـ بينيه ، واختبار « وكسلر » . ثم أوضحنا أن غاية معظم اختبارات الذكاء هي قياس مستوى القدرات والمواهب عموماً . ولكن هناك مقاييس واختبارات أخرى يمكن تناولها إلى جانب الاختبارات السابقة وأهمها « المقياس الشفوي » لقياس الذكاء(*) وهو يتكون من عدة اختبارات فرعية هي:

المعلومات : هو اختبار يركز على المعرفة الدراسية والثقافية عموماً .

الفهم : هو اختبار يركز على وسائل الإدراك وحسن استخدامها ، بالإضافة إلى قياس النضج الاجتماعي .

الحساب : هو اختبار يركز على قدرة معالجة الرموز والتفكير الرياضي والمعلومات الرياضية المدرسية واختبار التركيز الذهني .

المطابقة : هو اختبار لقدرة التصميم الابتكاري وقدرة الاستدلال المجرد بالتطبيق على أشكال ورسوم اختبارية محددة .

القدرة اللغوية : هو اختبار يركز على إدراك المفردات اللغوية ومعانيها والمهارات الأسلوبية والإدراك البلاغي، ولهذا المقياس قدرة في الكشف عن عدد من الخصائص الأخرى الفرعية للذكاء منها :

تكملة الصور : هو اختبار للكشف عن خصيصة قوة الملاحظة وسرعة البديهة والانتباه .

ترتيب الصور : هواختبار ـ آخر ـ للكشف عن مستوى الاستيعاب والفهم والترابط المنطقي في التفكير .

(*) الذكاء وتنميته لدى أطفالنا : سابق ، ص ١٥٩ .

اختبار كوهس : هو اختبار يتم عن طريق استخدام المكعبات الملوّنة أو الرسومات الهندسية، والهدف منه الكشف عن القدرات التحليلية والتركيبية، وقياس قدرة التناسق الحركي والبصري .

اختبار التجميع : هو اختبار يهدف إلى الكشف عن قدرة إدراك العلاقات المكانية بين مجموعة معينة من العناصر .

اختبار الرموز : هو اختبار يهدف إلى قياس القدرة على التعلم والتكيف، وقياس الإدراك البصري والتناسق الحركي.

المعضلات : هي مجموعة اختبارية متنوعة هدفها قياس مجموعة من الإمكانات مثل: التنظيم، والتوقع، والتكهن، ويتوقف عليها تحديد مستوى القابلية للتكيف الاجتماعي .

بيد أن : « ظاهرة قياس الذكاء واختباراته أصبح يُنظر إليها وإلى غاياتها على أنها تتأثر بالبيئة وأنها تهدف إلى تنمية الأدوات المعرفية. وتكوين اتجاه حياتي للبحث عن المعرفة المنظمة للكشف عن الحقيقة، ولقد أظهرت البحوث المختلفة تأكيد ظاهرة الذكاء الإنساني وأثبتت التجارب وجود الحقيقة العلمية، والتي أطلق عليها «الفروق الفردية »، فالأفراد يتفاوتون في نسب ذكائهم حسب نوعه، فمنهم من تكون سمته الغالبة من الذكاء: الذكاء الاجتماعي، أي القدرة على التعامل بنجاح مع من حوله من الناس. ومنهم من يكون طابعه الغالب: الذكاء الميكانيكي،أي القدرة على التعامل مع الأشياء وتركيبها . ومنهم من يكون طابعه الذكاء النظري المجرد، أي التعامل مع الرموز والمجردات والمعادلات والأفكار بكفاءة عالية » (*) وللأسف الشديد فإننا لا نستغل هذه الاختبارات والمقاييس في الكشف عن الفروق الفردية بين تلاميذ مدارسنا حتى نتمكن من تطوير التعليم ومناهجه في ضوء نتائج هذه

(*) السابق : ص ١٧٥ .

الاختبارات، بل ينحصر استخدام تلك المقاييس والاختبارات في الدراسات النفسية النظرية التي يجريها بعض الكتّاب، دون أن تكون هناك أية إفادة عملية في الميادين التي يمكن أن نستفيد فيها بنتائج تلك الاختبارات، فأقل فائدة ترجى من نتائج هذه الاختبارات هى الاستفادة منها في تخطيط البرامج الدراسية، أو حتى في تحديد أنواع الأنشطة المناسبة لتنمية قدرة الذكاء في أوقات الفراغ. كما يمكن الاستفادة بها في مجال تحديد المهن النوعية والأعمال المناسبة للأفراد حسب قدراتهم ومواهبهم التي تكشف عنها اختبارات الذكاء واختبارات قياس القدرات . أضف إلى ذلك الفائدة العظمى التي يرجى تحصيلها من استخدام تلك الاختبارات في المجالات التربوية عموماً، وفي مجال تنمية الذكاء خصوصاً .

وصحيح أن اختبارات الذكاء هي الوسيلة الوحيدة - حتى الآن - التي يمكننا من خلالها التعرف على مستوى الذكاء والقدرات العقلية، وصحيح أيضاً أن الذكاء من أهم دعائم النجاح ، لكن هناك من يرى من علماء النفس أن ثمة عوامل أخرى، سوى الذكاء ينبغي النظر إليها وأخذها في الاعتبار، هؤلاء العلماء يذهبون إلى أن : « هناك أنواعاً كثيرة أخرى من القدرات، وهذه القدرات - بدورها - على جانب كبير من الأهمية في أعمال كثيرة وميادين مختلفة من ميادين العمل، وهي ميادين هامة، ويحصل الناس منها على أجور عالية. إن الوظائف الطيبة لا تذهب لأصحاب «العقول الكبيرة » وحدهم . فمثلاً نلاحظ أن اقتصادنا يعتمد اعتماداً كبيراً على الآلات وعلى العمال الذين يديرون هذه الآلات ويوجهون سيرها ، وهم ميكانيكيون، وهؤلاء الأعضاء ذوو الشأن في مجتمعنا أو صفوتهم الممتازة - على الأقل - يستطيعون إلى حد كبير أن يحددوا الأجور التي يتقاضونها ، ومع هذا نرى أن الميكانيكي لا يشترط أن يكون شخصاً قد حصل علي درجات عالية في اختبارات الذكاء ، ذلك لأن اتجاهاته وميوله المكيانيكية لا تقيسها اختبارات الذكاء، هذا على الرغم من أن الدراسات الحديثة للميول والاتجاهات الميكانيكية قد أظهرت أنها

تتركب من مهارات عقلية ومهارات آلية في وقت واحد معًا. فهي تتطلب العقل المفكر كما تتطلب اليد العاملة، ولكنها ليست من القدرات التي تكشف عنها اختبارات الذكاء. إنها لا تؤخذ في الاعتبار عادة على أنها (قدرة عقلية) .

والاستعداد الميكانيكي ليس إلا مثالاً واحداً من أمثلة القدرات العظيمة التي لا تقيسها اختبارات الذكاء . ويمكن أن يضاف إليها إنتاج الموسيقيين والفنانين ذوي المهارات العظيمة »(*) ونفس هذه الاتجاه يمتد ليضيف إلى ما سبق : « إن نوع المواطن الذي نصبو إلى تكوينه وبنائه، سواء كان هذا المواطن واحداً من آلاف الأزواج أو الزوجات ، أم كان أيا منا ، أبًا أو أمًا ، يعتمد على عناصر أخرى غير الذكاء وحده. فالقدرة على مقاومة الضغط والوقوف في وجه الإخفاق، والقدرة على الحب دون الأنانية ، والرغبة في الإسهام في ترقية المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان باعتباره عضواً من أعضائه ، كل هذه مميزات نرجو أن يتحلي بها أطفالنا حينما يكبرون ويصبحون راشدين . فـإذا انعدمت فيهم هذه الصفات - بصرف النظر عما يكون لديهم من قدرات عقلية - أصبح أطفالنا متخلفين بدرجة خطيرة وعاجزين عن التكيف للحياة التي يحيونها »(**) وبرغم هذا كله ، أي برغم أن علماء النفس يؤكدون أن الذكاء وحده ليس أهم القدرات بل إن هناك قدرات أخرى لا تقل أهمية عن الذكاء نفسه، إلا أنهم قد قرروا منذ البدء أن « الذكاء » من أهم مميزات الشخصية، لكنهم في الوقت نفسه يعترفون أن اختبارات الذكاء وإن كانت إلى الآن هي الوسيلة الوحيدة التي نتمكن بها من القياس الكمي للقدرات العقلية عمومًا ، وقدرة الذكاء خصوصًا ، إلا أن هذه الاختبارات مع ذلك ليست خلوا من العيوب، وإن عيوب اختبارات الذكاء تتنوع وتختلف باختلاف أسباب نشأة هذه العيوب التي قد يرجع بعضها إلى الاختبارات نفسها كما قد يرجع بعضها الآخر

(*) القدرات العقلية لدى الأطفال : سابق ، ص ١١٧ .

(**) المرجع السابق : ص ١٢١ .

إلى من نطبق عليهم تلك الاختبارات بينما يرجع البعض الآخر من العيوب إلى الظروف التي تجري فيها الاختبارات .

* * *

قوة الإرادة : إرادة للقوة

لا شك في أن السبيل الأوحد،الأعم، لتحقيق وامتلاك قوّة الإرادة هو: « إرادة القوة » .

إذ ليس من المتصور أن تقوى إرادتنا على غير رغبة منا في « القوة » ذاتها ، ونحن - في الواقع - إذا أردنا أن نحقق قوة الإرادة ، فإنما نحن نرغب في ذلك لأسباب بذاتها ، إذا انعدمت انعدمت - بالتالي - الرغبة في تحقيق وامتلاك « قوة الإرادة ».

لماذا إذن يرغب المرء في أن تكون له « إرادة قوية » ؟

أغلب الظن أن أسباب هذه الرغبة ترجع في مجملها إلى « إرادة النجاح » العام في مختلف ميادين الحياة ، إذ إن بأعماق كل منا رغبة فطرية أولية تدفعه دفعًا إلى « تحقيق الذات ». ونحن قطعًا لا نشعر بالسعادة إلا عندما نحقق ذواتنا في الميادين التي نرتجيها.

لكن الفارق بين السعادة المحدودة القاصرة وبين السعادة الشاملة هو : أن السعادة الكلية الشاملة هي النتيجة أو الثمرة النهائية للنجاح الكامل الشامل في الحياة عمومًا ، وليس في أحد ميادين الحياة دون غيرها من الميادين الأخرى .

والنجاح الشامل الكامل بهذا المعنى هو« تحقيق الذات » ، أو هو بالأحرى الثمرة النهائية لتحقيق الذات تحقيقًا كليًا في مختلف ميادين الحياة .

وفي اعتقادي أن هذا المطلب ليس من المطالب السهلة الميسورة للجميع، إذ إننا نولد - جميعًا - ولدينا من الاستعدادات والقدرات ما قد تعمل البيئة والتربية والثقافة على تنميته. وما قد تعمل على عرقلة نموّه ومن ثم تتدهور تلك الاستعدادات والقدرات وترتكس.

ولهذا السبب تظهر التفاوتات والفروق الفردية في الذكاء والقدرات بين أفراد المجتمع، بل أفراد الأسرة الواحدة، وبسبب من هذا التفاوت لا تتمكن الغالبية العظمى من سواد البشر في المجتمع من تحقيق النجاح الشامل الكامل، بل يقتصر نجاح الأفراد على ميادين محددة دون غيرها من الميادين الأخرى، وهنا يشعر المرء بأنه لم يحقق ذاته على الوجه الأكمل الذي كان يرجوه ويحلم به فتكون سعادته منقوصة بالقطع .

ولهذا السبب تقوى الرغبة في استكمال جوانب النقص في الحياة الذاتية للإنسان، ولا شك في أن استكمال جوانب النقص - أيا كانت - تستدعي وجود القدر اللازم من « قوة الإرادة » . بيد أن امتلاك قوة الإرادة - كما أسلفنا - يتطلب بدوره الرغبة في القوة ذاتها ، وهي رغبة تنشأ - كما هو واضح - من النزوع إلى « تحقيق الذات » تحقيقًا كاملاً شاملاً .

إذن فهناك ارتباط وثيق الصلة بين « إرادة القوة » وبين الرغبة أو النزوع إلى «تحقيق الذات ». فكيف نفهم هذا الارتباط وكيف نفسره ؟

الواقع أنه إذا كانت الإرادة قوة من القوى الإنسانية التي يتفاوت حظ كل منا منها : فإنه مما لا شك فيه أن الإرادة هي أعظم قوى الإنسان كافة، ذلك أن الإرادة ذاتها هي التي تسيطر على سائر قوى الإنسان الأخرى، وهي التي تعمل على توجيه وتوظيف تلك القوى لخدمة الشخصية ككل .

فالإنسان يمكنه أن يضع من نفسه الشخصية التي يريدها ويختارها بكل دقائقها وتفاصيلها، ما عليه إلا أن يختار النمط الشخصي (النموذج) الذي يحلو له، ثم يصمم على التمسك بتحقيق هذا النمط في كل تفاصيله بحيث لا ينحرف أبداً عن نموذج الشخصية التي اختارها، وبمراقبة النفس بصفة دائمة يمكن للإرادة أن ترد الإنسان إلى الطريق الذي أراده لنفسه ولشخصيته - منذ البدء - كلما انحرف أو حاد عن طريق تنكب تلك الشخصية .

ومن الذكاء أن يتعرف الإنسان على قواه النفسية، ومنها الإرادة، حتى يعمل بعد ذلك على توظيف تلك القوى لخدمة أغراضه، أعني لتحقيق النجاح الشخصي - بمعناه الفلسفي - الذي هو : « تحقيق الذات » .

إذ ليس من المستحيل أن ينظر الإنسان إلى نفسه كما لو كانت مجرد خامة طيّعة بين يديه يشكلها كيف يريد حتى يبلغ بها الهدف من وجودها .

وفي نفس الوقت، إذا لم يجد المرء لنفسه هدفًا في الحياة، فهو ليس أكثر من خامة إنسانية صرفة،لم تجد من يشكلها بعد، وإن ظن أنه - وفقًا لحياته - يتمتع بشخصية حقيقية قوية، إذ الشخصية القوية ترتبط بالإرادة القوية. والإرادة - بدورها - لا تقوى إلا إذا استخدمت في الإصرار على تحقيق أهداف الكائن الإنساني الذي يهدف - من وجوده - وفي وجوده - إلى تجاوز ما هو بشري في آدميته إلى ما هو إنساني في ذاته وكيانه النفسي .

لا بد لكل إنسان، إذن من هدف . ولا بد لكل هدف من فلسفة عامة تحدد للكائن الإنساني ماهيته ووضعه إزاء نفسه وإزاء العالم والكون، أما توظيف قوانا الكامنة، ومنها الإرادة فذاك أحد الجوانب أو النتائج التي نتوصل إليها بالجهد الذي نبذله في بناء فلسفتنا الذاتية .

ولنتذكر دائمًا أن ما نريد أن نتطابق معه هو تلك الذات المثالية التي نرجوها لأنفسنا، والتي نرسم لأنفسنا طريقنا في الحياة (فلسفتنا) لكي نبلغها أو نحققها .

فالفلسفة المقصودة هي فلسفة : «تحقيق الذات» أو بعبارة أخرى: هي الإطار ـ العام ـ (الفكري) الذي يحدد ملامحنا الشخصية والنفسية عندما تلتزم أفكاره. وهنا تتضح لنا بجلاء أهمية الأفكار والثقافة في بناء مشروع وجودنا الفردي، لأننا تحكمنا العقائد وأنساقها ، والطبيعة النفسية التي تميز كل منا ، هي طبيعة مستمدة من نسق العقائد والأفكار التي نؤمن بها ونعمل وفقًا لها .

وبهذا المعنى ، كلما كان فهمنا للإرادة وحدودها وأنواعها وطاقات كل نوع من أنواعها أمكن لنا أن نوظف هذه الإرادة في المجال الذي يخدم مشروع وجودنا، على أن يبدأ فهمنا هذا من « إرادة الحياة » ثم من بعدها « إرادة المعتقد » ومن هذه وتلك ـ إلى « إرادة القوة » التي هي أصل « إرادة النجاح » ، ثم لنتوج توظيف مجموع طاقات هذه الإرادات بالتوظيف الجيد لإرادة : « تحقيق الذات » .

نحن نرغب في الإرادة القوية لأننا نرغب في القوة ذاتها، القوة التي تجعلنا نحقق ما نريده ؟ ولكن هل طلبنا هذا للقوة طلبٌ لشيء لا نملكه بالفعل ونسعى إلى امتلاكه ؟ أم هو رغبة في إطلاق قيود قوة كامنة في نفوسنا فعلاً ؟

إن الإرادة قوة أساسية من قوى الروح، لذا فهي قوة يملكها جميع البشر، ويمكنهم تنميتها بأساليب معلومة. لكن اختلافنا في استخدام قوانا، بما فيها الإرادة، هو ما يؤدي إلى ظهور ونمو تلك القوى أو ضمورها وضعفها . ولكي نستخدم قوانا الاستخدام الأمثل علينا أن نتعرف على أعظم تلك القوى وهي : «الإرادة » .

* * *

ما الإرادة؟

هناك أكثر من إجابة لهذا السؤال، أي أكثر من معنى للإرادة !

هناك، أولاً : المعنى العام - الشائع لدى العامة عن مفهوم الإرادة. وهناك ثانياً : المعني العلمي الذي يفهمه رجال الطب، وأخيراً فهناك المعنى الفلسفي الذي يأخذ به الفلاسفة في تصورهم للإرادة .

المفهوم الشائع :

فالمعنى الذي يفهمه عامة الناس ويتداولونه في الحياة اليومية هو ذلك المعنى الذي يحدد تصور الإرادة في الوعي الجمعي باعتبارها الطاقة الدافعة للإنجاز، أو الجهد الذي لا بد من بذله لتحقيق أي عمل. وهي بهذا المعنى أعظم قوى الإنسان، إذ بدونها لن يقدم المرء على عمل شيء. أو هو بالأحرى لن يستطيع أن يفعل أي شيء، لأن (الفعل) عموماً يقتضي (الإرادة) .

فالإرادة في معناها الشائع هي القوّة الدافعة للفعل، أو هي ما يدفع الفعل إلى التحقق بعد أن كان في حيز التصوّر والتخيل. فكل ما يدخل في مجال التصور والفكر لا بد له من طاقة دافعة تخرجه من مجال التصور التجريدي إلى مجال العمل الواقعي المتحقق بالفعل، وما تلك الطاقة سوى الإرادة .

ويمكننا أن نستشف مكونات الإرادة في هذا الفهم فنرى بوضوح أن الإرادة تتكون من : التصور، ثم العزم، ثم الجهد. فالإقدام على الفعل يتطلب التخيل أولاً، ثم العزم (التصميم) على تحقيق التصور، ثم الجهد الذي يدفع التصور إلى التحقق العملي في الإنجاز النهائي للإرادة .

المفهوم العلمي :

أما المفهوم العلمي الذي يقدمه علماء النفس للإرادة فهو مفهوم يؤكد أن : « عملية الإرادة لها علامتان مميزتان نموذجيتان وهما :

١ـ عمل الإرادة في جميع أطواره وأدواره عمل واع قابل للرقابة، فالباعث والعزم والأداء كثلاثة تروس مسننة يشتبك بعضها ببعض، وتدور معًا وتخضع في ذلك للرقابة الواعية، وليس بينها عضو واحد لا يخضع للرقابة .

٢ ـ يوجد ـ في الواقع ـ بواعث (دوافع) غير واعية تؤدي إلى عمل (أداء) ولكنها ليست من إجراءات الإرادة . لأن كل إجراء إرادي يجب أن يرتبط بشعور إجهاد ـ وهذه هي العلامة الثانية المميزة . أن واحداً من التروس المسننة الثلاثة لا يمكن أن تعمل تلقائيًا ولا بد لها من دافع فاعل يدفعها إلى العمل والدوران . ثم يزداد الإجهاد تدريجيًا حتى يبلغ ذروته في فصل (العزم) ويصبح أكثر وضوحًا في فصل (الأداء = التحقيق) .

لذلك يميل الأشخاص ذوو الإرادة القوية إلى استعمال (العنف)، والشراسة هي الجانب السلبي للطاقة غير المكترثة (عديمة التبصر) واللامبالاة في تحكيم الإرادة. ومن هذه الوجهة يمكن أن يصاغ للإرادة (قانون للسطوة) يقول: إن « الوضوح في النجاح يزداد بازدياد مجهود الإرادة » .

ذلك هو تحليل علماء النفس لعملية الإرادة،ومنه يمكن أن نشتق المفهوم النفسي لها . ومع ذلك ما يزال بمقدور الطب ـ غير النفسي أن يمدنا برؤية أوسع في مداها عن الإرادة، خاصة في علاقتها بأجهزة الجسم عمومًا . فالجسم ... « يتكون من الخلايا، والمواد التي تربط بينها، وهذه تكوّن بمجموعات منها مختلف الأنسجة في الجسم، فهناك نسيج خاص للأعصاب، وآخر للعضلات، وثالث للدم، وغيره للجلد والغدد... والعظام... إلخ

والأعضاء في الجسم تتكون من مجموعة من مختلف الأنسجة المذكورة، فالقلب مثلاً مكون بالدرجة الأولى من نسيج عضلي ولكن معه نسيج رابط ونسيج للأعصاب وفيه أيضاً من نسيج الدم السائل. وبالطبع هناك علاقة وطيدة الصلة بين الإرادة من جهة وبين الخلايا والأنسجة والأعضاء من جهه أخرى. فإن للإرادة ترابطاً مع نوعين من الأنسجة، وكذلك مع مجموعتين من الأعضاء هما: « العضلات ، الأعصاب » .

فالجسم لا يقوم بأي حركة إلا عن طريق العضلات، وكل حركة - في ذات الوقت - مصوّبة لتحقيق عزم معين، فمن الضروري إذن أن تكون هناك صلة بين العضلات وبين المركز الذي يتكون فيه العزم وهو (الدماغ)، والأعصاب هي واسطة الاتصال بينهما .

وينطبق هذا على العضلات الخارجية فقط، أما العضلات الداخلية (القلب، الأحشاء .. إلخ) فلا تخضع للإرادة، إنما تعمل تلقائياً (أتوماتيكياً) كالدورة الدموية وإفرازات الغدد الصماء .

والجهاز العصبي وجميع الأسلاك التي تخرج من الدماغ والنخاع الشوكي، والجهاز العصبي في الأحشاء الداخلية، كل هذه تكوّن النسيج الوحيد بين مختلف الأنسجة التي تنتمي إلى الجسم والروح معاً . لذا نقول إن الإرادة تتكون في الدماغ، أو على الأقل لا بد من وساطة الدماغ لجعلها فعّالة وظاهرة، فالإرادة النابعة من الدماغ تسري في الخيوط العصبية لتصل إلى العضلات وتصدر إليها أوامرها . ولا يمكن إلا الاعتراف بوجود قدر من السلطة للإرادة على الوظائف الروحية - النفسية - كالتفكير، والشعور، والتصرف، ولكن يشترط في هذه أن تكون نابعة من العقل الواعي، أما في الحالات التي تكون فيها هذه نابعة من العقل الباطني، فليس للإرادة عليها أي سلطة أو نفوذ »(*) .

---

(١) الإيحاء الروحي : د. أمين رويحة ، ص ٤٨ .

المفهوم الفلسفي :

الإرادة - في الفلسفة - قوة أساسية من قوى الروح .

إنها القوة المعبرة عن قدرة الإنسان على التصوّر، ثم اتخاذ الموقف الحاسم لتحويل التصوّر إلى عمل واعٍ منظم، وأن لهذه القوة آليات تسير بمقتضاها، وأن هذه الآليات تتكون من :

١ - الباعث (أي المحرك) : وهو القوّة الحافزة. أو التصوّرات الواعية، أو بتعبير آخر: (المراد والقصد) .

٢ العزم: وهو فعل الإرادة الأصيل، أو الفصل الثاني في (تمثيلية الإرادة) .

٣ - الأداء: أو تحقيق المراد (الهدف) وهو الفصل الجوهري في تمثيلية الإرادة(*) .

فالمفهوم الفلسفي للإرادة لا يتجاوز المفهوم الذي تجده للإرادة في القاموس وهو أنها : « ملكة التصميم على أعمال معينة اختياراً » . بيد أن المفهوم الفلسفي يجعل (للخيال) أهمية أولية وحيوية في عمل القوة الإرادية. لذا تعتبر الفلسفة أن (المخيلة) تتحكم في الإرادة وتقودها ، إذ إن التصوّر الذي يقود القدرة على الفعل يرجع إلى المخيلة. فأنت تقدر على فعل الشيء لأنك تصورت قدرتك على فعله ووقر في نفسك أنك تستطيع أن تفعله . فالإرادة - لهذا السبب - يحركها الخيال والتصوّر .

إذن، عن طريق الإرادة، وسلاحها الفعّال، يمكن أن يحدد الإنسان مساره في الحياة، وأن نختار مصيره وقدره فينجح أو يفشل إذا أراد. فهو إذا تصوّر قدرته على النجاح استطاع أن ينجح، وهو إذا تمثل العجز وعدم القدرة ومحدودية الإمكانات كان الفشل حتماً هو نتيجة اختياره وتصوراته (**). ويفهم من ذلك أن

(*) المرجع السابق .

(**) الطريق إلى النجاح : المؤلف .

للإرادة أنواعها، وحدودها، وطاقاتها. وفي هذا المضمار يمكننا التعرف على أنواع الإرادة التالية :

- الإرادة العمياء :

يولد الإنسان مزوداً بمجموعة من الغرائز الفطرية التي تظل في حاجة دائمة وأبداً إلى إشباعها، ومن بين هذه الغرائز ما يمثل احتياجات حيوية هامة لا سبيل إلى إنكارها أو التغاضي عنها. ولا ضرورة لبذل الجهد حتى من أجل تهذيبها، بيد أن هناك غرائز أخرى إذا ترك الإنسان لنفسه العنان لينقاد خلفها، فإنها لن تقوده - حتماً - إلا إلى هاوية الحضيض الحيواني .

والمسألة هنا أن الغرائز في أصلها (قوى) طاغية مستمدة لا سبيل إلى الإفلات من سيطرتها وطغيانها إلا إخضاعها لسطوة العقل، ولكن من الغرائز - كما قلنا - ما يقودنا إلى الانحطاط، لأن هذه الغرائز المنحطة (قوى عمياء) تريد أن تحقق رغباتها المنحطة بغض النظر عن العواقب. ومهما كانت العواقب الوخيمة وثيقة الصلة بنا ويقع علينا ضررها، أو كانت وثيقة الصلة بالواقع ويقع ضررها على الغير أو المجتمع .

لذا كانت محاولات الأفراد والمجتمعات، منذ قديم الزمن، لتهذيب تلك الغرائز بإخضاعها العقل، أو بجعلها غرائز عاقلة، وذلك بتحويلها من قوى عمياء تعمل للإضرار إلى قوى عاقلة إيجابية، بيد أن مشكلة التخلص من تلك الغرائز ما زالت قائمة في العلوم النفسية والفلسفية على السواء وإلى يومنا هذا .

- الإرادة الموجهة :

هي ما قصدناه منذ البدء ووصفناه بأنه إحدى قوى الروح الأساسية. وقد استعرنا في هذا الوصف تعبير الفيلسوف الألماني « إيمانويل كانط » الذي ذهب إلى أن للإرادة قوّة ، ليس في السيطرة على إثارة الشعور فحسب، بل أيضاً في السيطرة على الأسقام الجسدية. وفي اعتقاد (كانط) أن عمل الإرادة هذا يمكن أن

يتم بالفعل فيما لو « صمم » المرء على ألا يكون مريضاً . أو على الأقل ألا يخضع للمرض أو المشاعر المرضية .

والواقع أن أغلب الفلاسفة من أمثال (كانط) كانوا يعتبرون أن مستقر الروح هو العقل، أو بالأحرى أن الروح أحد مظاهر العقل أو جوانبه، فإذا قلنا إن الإرادة هي إحدى قوى الروح الأساسية فمعنى ذلك أيضاً أنها إحدى قوى العقل الأساسية .

والواقع أنه ليس ثمة عمل من أعمال العقل ينتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل إلا بقوة دافعة هي الإرادة، بل الأفضل من ذلك أن يقال: إن تحول الأفكار إلى أعمال، ما هو إلا تحول في صورة الإرادة ذاتها ، أي تحول في صورة (القوّة) وانتقالها من (قوّة فكرية) إلى قوّة عملية) .

فالإرادة الموجهة هي: إرادة العقل، أو الوعي الأرقى في ممارسة اختياراته العملية التي تدفع صاحبها إلى مزيد من النجاح والرقي والتقدم والتفرد والتميز المبدع الخلاّق . إذ لو لم تكن الإرادة العاقلة (الموجهة) إرادة إبداع وتميّز وتفرد ورقي وتقدم، وإذا لم تكن في ذاتها - فعل نضال - لا هدف له سوى تحقيق الذات في أفضل وأرقى صور تحقيق الذات، فإنها - عندئذ - ليست أكثر من إرادة عمياء، أو على الأقل مضلّلة بفلسفات سلبية عن الوجود الفردي والاجتماعي .

فالقوّة الدافعة المحركة للإنسان هي العقل والإرادة الماثلة خلفه، وكلما كان الوعي الفردي يهدف إلى الرقي بصاحبه عبر الفلسفات الذاتية - التحررية، كانت الإرادة أقوى ، وكان إصرارها في تحقيق ذات صاحبها أقوى .

الإرادة الحشدية :

المقصود بها المعنى العام الذي يعرفه السواد الأعظم من الناس للإرادة، فهي القوة الدافعة الباعثة على الفعل. لكن مصدر هذه الإرادة (الحشدية) يختلف عن مصدري الإرادة العمياء والإرادة الموجهة، فالإرادة الحشدية على النقيض منهما مصدرها : «المجتمع».

أو فلنقل إن « الإرادة الحشدية » هي : ما يخلقه المجتمع فينا . وبه يتشارك الجميع ويتشابهون، يتشابهون اجتماعياً فيحدد مستوى تشابههم مستوى الطموح السائد في المجتمع، بحيث يعد كل تجاوز لهذا المستوى من الطموح، أو بالأحري كل رغبة في تجاوز هذا المستوى نمطًا من الشذوذ ، أو على الأقل رغبة ـ في الطموح ـ مثيرة للدهشة والعجب .

والأفراد الذين يتحررون من سلطة الإرادة الحشدية يتمردون علي ما يحدده المجتمع من مستوى للطموح، ولا يأبهون بسخرية الحشود الاجتماعية من رغباتهم وأحلامهم، بل إنهم يستمدون قوّة إرادتهم من تمايزهم الفردي الذي يحررهم من الخضوع لسلطة الإرادة الحشدية. فهم لا يخضعون إلا لإرادتهم الفردية المستقلة التي تحدد لهم مستويات أعظم وأبعد وأوسع أفقًا من المستوي السائد للطموح في المجتمع، فالمستوى السائد للطموح في المجتمع هو أقصى ما يتمنى أن يصل إليه الجميع، وهو ليس بالعظيم أو المستحيل، ويعتبر الوصول إليه ـ من وجهة نظر الحشود ـ شيئًا ذا خطر وقيمة، لكنه في الواقع خط الأفراد الذين لا يتمتعون بقوّة الإرادة ، والذين لا يطلبون التميز والعظمة والنجاح الذي لا يدركه إلا فئة من النابهين فحسب .

وهنا ندرك ما تقوم به « الإرادة الحشدية » من دور سلبي في المجتمع، فهي حينما تهدف بدورها إلى الحفاظ على الكيان الاجتماعي والتراث والقيم من جهة، تعوق انطلاق إرادة الأفراد وطموحهم الذاتي لتحقيق وجودهم خارج النسق الاجتماعي وقوانينه الجديدة . أي إنها تعوق الإبداع الذاتي الذي تقوم به الإرادة المستقلة لأفراد عبر التمرد الفلسفي الذي يؤسس للأفراد قوانينه الذاتية ـ مقابل القوانين الاجتماعية القديمة، المشتقة من التراث والنسق الثقافي الذي يفرز العقائد والقيم الاجتماعية التي تحدد أنماط السلوك والطموح معًا .

وتتجلى الإرادة الحشدية إما على مستوى المجتمع، أو على مستوى الفرد فهي:

- إرادة مجتمع : حينما تعمل على مستوى المجتمع في الحفاظ على الكيان الاجتماعي والتراث والقيم.
- وهي إرادة فرد: خلقها المجتمع لتمثل الجانب الاجتماعي في شخصيته ولتعمل من خلال مجاله النفسي هو ذاته كإنسان للإبقاء على الكيان الجمعي، وإبقاء الإنسان (الفرد) ذاته في إطار هذا الكيان الجمعي الذي يميز المجتمع عما عداه من المجتمعات الأخرى .

وعلى هذا فكل إرادة من تلك الإرادات تعمل في مجالها وفي حدودها لأداء وظيفة محددة ومهام معينة، والإنسان يستخدم هذه الإرادة، كما يستخدم المجتمع إرادته، وكل منهما يعلم حدود طاقة الإرادة وإمكاناتها ومن ثم يوظفها لتحقيق أهدافه .

ولا يتسثنى من ذلك سوى « الإرادة العمياء » فهي قوة طاغية تسيطر على العقل وتغلبه لصالح الغرائز. ومن ثم فهي قوة لا يوظفها الإنسان لتحقيق أهدافه العقلية أو الوجودية، ولا يقودها، وإنما هي التي تقوده وتجمح به إلى مهاوي الانحطاط الغريزي .

* * *

إرادة القوة : إرادة للوجود

في البدء : كانت القوّة !

وفي الفيزياء ، تعرّف القوّة بأنها الطاقة، فهي أصل الذّرة. أو هي ما يمكن أن تنحلّ إليه الذّرة بعد تفتيتها ، وقبل الطاقة لم يكن في الوجود سوى : العدم.

كيف إذن تحولت القوّة أو الطاقة إلى ذرّة ؟

إنها قصة (النظام) أو (إرادة الوجود) إذ لكي يظهر الوجود لا بد من نظام، أي أن انتظام القوّة . يمنحها فعالية التطور .

إرادة القوّة إذن هي : « إرادة الوجود » وليست إرادة الوجود سوى إرادة التحقق، أي إرادة « تحقيق الذات » لدى الإنسان، أما في المستويات الأدنى من الوجود غير البشري . فإن إرادة الوجود لا تهدف إلى تحقيق ذاتية، إذ الذاتية: تعيّن لوضع وجودي خاص بالإنسان (الفرد) . دون الجماعات من جنسه، أما المستويات الأدنى من الوجود غير البشري، وعلى الأخص الوجود الحي، النباتي والحيواني، فهو يهدف بإرادة وجوده إلي تحقيق (كينونة) مستواه الوجودي الحي.

تلك (كائنات) حيّة، لا يرقى وجودها إلى تحقيق الذاتية. لذا فهي تظل ـ حتماً ـ دون الذاتية وفي حدود الكينونة التي اشتقت منها لفظة (الكائنات) .

أما المستويات الأدنى من مستوى وجود الكائنات الحية، فهي مستوي وجود الجمادات، ويسمى هذا المستوى بمستوى الوجود الطبيعي، وهو مستوي لا تهدف إرادة وجوده لا إلي تحقيق ذاتية ولا إلى تحقيق كينونة، بل كل هدف إرادة وجود هذا المستوى هو « الظهور » على مسرح الوجود الطبيعي، في حدود الظهور الجامد الذي اشتق منه لفظ « الظواهر » ـ الطبيعية .

والمهم في معنى « إرادة القوة » هو أن جوهر تلك الإرادة هو القوّة الموجّهة للوجود نحو هدف التحقق، فهذه القوّة تظهر في الوجود بأشكال متباينة، وفي مستويات مختلفة، وبسبب من هذا التباين والاختلاف يختلف نمط التحقق الوجودي الذي تتجه نحوه هذه الإرادة أو تلك .

فالقوة التي للطبيعة تبدأ من الطاقة الكامنة في الذرة، وتنتهي عند التراكيب المعقدة لأبنية العالم المادي الذي يتألف منه عالم الظواهر الطبيعية الجامدة، فهي قوّة تتدرج في أشكالها ودرجاتها ومسيرتها لتوجه هذا المستوى من الوجود الطبيعي الجامد إلي هدفه ـ بقانون التطور ـ وهو « ظهور » العالم الطبيعي في هذا المستوي الوجودي .

أما القوة التي لوجود الكائنات الحية (النباتية والحيوانية) فتبدأ من تركيب مادي ـ حيوي قابل للانبعاث الحيوي في خلية أولية مثل الأميبا . وتستمر هذه القوّة بدرجاتها وأشكالها في مسيرتها لترتقي بالكائن الحي الأولى في سلسلة رهيبة من التطور . تنتهي عند مستوى الوجود الحيواني، الذي يتميز بالكينونة بفضل الانبعاث الحيوي في مادته، أي بفضل انبعاث الحياة في بنيانه المادي، فهو ليس مجرد (ظاهرة مادية) بل هو: كائن حي .

أما القوى التي للوجود البشري فتبدأ من ظهور (الكائن) ورغبته في (تجاوز) الكينونة البشرية إلي تحقيق (الذاتية) التي تعني تحقيق الجوهر الإنساني (الرقي) للكائن الفرد .

فالإرادة في مستوي الظواهر الطبيعية الجامدة إرادة عمياء، كثيفة وجامدة وغير قابلة لاستقبال الحياة، وهي إرادة غير عاقلة، إنها مجرد قوّة عمياء، أرقى تنظيم لها تظهر فيه هو : (الظواهر - الطبيعية) .

على أن هذا التنظيم نفسه هو ذاته: (نسق العقل) - الذي لا يرقى إلي مرتبة النسق بالفعل إلا بعد (انتظام) القوّة بالشكل والحدّ الذي يؤهلها إلى (الظهور) في تراكيب - منظمة - تؤلف الظواهر . ويحتاج النظام إلى مستوي آخر من التعقيد البنائي المؤلف من تراكيب معقدة - بدوره - حتى يبدأ الوعي في التشكل من مجموع النظم المؤلفة لتلك التراكيب .

وعندما يتم الانتقال إلى مستوي الوجود الحيوي، تبدأ الصورة الأولية جداً للوعي في الظهور بانبعاث النشاط الحيوي. فإذا أردنا أن نقف على تصور مادي (علمي) للوعي فما علينا إلا أن ننظر إلى الذرّة ، مم تتركب ؟ وإلى أي شيء تنحل في النهاية ؟ عندئذ نجد أنفسنا - كما قلنا - في مواجهة (الطاقة) - القوة .

وعلى ذلك فالمخ البشري الذي يعي والذي يتألف من مادة تتألف بدورها من أبنية معقدّة من الخلايا التي تشكل (الذرّة) الوحدة الأساسية في بنائها، يرتد في النهاية إلى طاقة، وعلى ذلك فالوعي أيضاً هو طاقة (قوّة) تنتج عن جهد (نشاط) الخلايا . وهذا الجهد ما كان ليحدث لولا تراكب الخلايا، وتراكب الخلايا ما كان ليحدث لولا التراكب في الذرة نفسها . وهذا التراكب الأخير لم ينشأ إلا عن (نظام) أنتج هذه التواليف ومنحها فعالية الانبعاث الحيوي (تيار الشعور) .

أي أنه ، في البدء كانت القوّة .. الطاقة، الخاملة، ثم تبدأ الطاقة في الفعل (البناء) عند نقطة ارتباطها (بالنظام) - الشكل : فالنظام هو شكل، أو وضع من

الأوضاع، تبدأ الطاقة عنده في التحول من كونها مجرد قوّة خاملة إلى قوّة فاعلـــة .

والانتقال من الخمول إلي الفعل يؤدي إلى تراكيب أكثر تعقيداً ، وتواليف وأبنية أكثر تنظيماً ، مما يؤدي في النهاية إلى تهيئة الوضع الأفضل لتحول أفضل للطاقة الفاعلة، هذا التحول الأخير يؤدي إلى انبعاث حيوي في مستوى وجودي أرقى من الوجود الطبيعي، هو مستوى الوجود الحي (الحيواني) .

فالقوة أو الطاقة (تشكل) نفسها، باتخاذ أوضاع (نظام) تنشأ عنها التراكيب المادية، ومن خلال التشكل عبر نظام يخلق التراكيب والعناصر، تعيد الطاقة إنتاج نفسها من جديد، مع كل تركيب جديد تشارك فيه مجموعات مختلفة من التواليف والتراكيب الأولية. (هناك إضافة مستمرة من الطاقة إلى الطاقة في الوجود) أي أن هناك إرادة متزايدة باستمرار كامنة في البناء الكلي للوجود . وهي تدفع الوجود إلى التطور - بدءاً من الذرّة - لتحقيق هدف يبدأ من الظهور وينتهي إلى التحقق .

وهكذا نشأ الكون ، وبني الوجود مادته، ووزع طاقته على سائر مستويات الوجود، فكل ما في الكون : طاقة، قوّة ، إرادة. فهو من الطاقة نشأ وإلى الطاقة يعود، ولكل مادة طاقتها (قوتها) : أو إرادتها، أو وعيها الخاص.. وهكذا حتى نصل إلى أرقى أنواع الوعي (الطاقة المدركة الواعية) متمثلة في أرقى مستويات الوجود وهو « الوجود الإنساني » .

إذن فالتطور وهو ناموس الحياة كان يهدف منذ البدء إلى تحقيق غاية هي الوجود الإنساني، ولكي يحقق هذا الناموس غايته فإنه ظل يعمل من خلال (القوّة) - الإرادة ، وبتشكيله لها، أي أنه استخدم « إرادة الوجود » حتى يصل إلي تحقيق الوجود .

وهنا بالتحديد يجب أن نتذكر أن نفس القوّة هي التي تعمل فينا، وهي التي تقود مسيرة حياتنا وتحكم مصيرنا وتصوغ شخصيتنا .. إنها قوّة الإرادة، أو« إرادة الوجود » .

لكن، وكما قلنا من قبل، فإن لعمل الإرادة فينا آليات معينة. أهمها: « التخيل » . ونحن في الواقع إنما نبني أنفسنا، وشخصونا، وأفعالنا، ونختار مصيرنا، ننجح أو نفشل وفقًا لما نتخيله أو نتصوره عن ذواتنا وقدراتها .

هناك من يبني لنفسه شخصية تتكون عناصرها من الأفكار السلبية عن قدراته المحدودة القاصرة، ومن ثم فلا يتوقع لمثل هذه الشخصية أن تحقق من الإنجازات إلا ما يتوافق ويتناسب مع أفكارها وتصوراتها عن ذاتها وقدراتها .

وهناك من يبني لنفسه شخصية تتكون عناصرها من الأفكار الإيجابية عن قدراته غير القاصرة التي لا تعترف بالمستحيل، ومن ثم فلا يتوقع لمثل هذه الشخصية أن تخفق، أو تقيدها الإنجازات المحدودة، بل على العكس فإن قوة تلك الشخصية تنبع من تصورها عن ذاتها وقدراتها وطاقاتها، وعلى رأس هذه الطاقات والقوى «الإرادة» ذاتها .

فإذا كانت « إرادة الوجود » هي التي تحكم حياتنا وتوجه اختياراتنا، فأهم ما يجب أن نتذكره دائمًا هو : « أن الذي نحاربه ونناضل في سبيل الانتصار عليه هو: « عادتنا القديمة » الراسخة، التي غدت مع مرور الزمن أقوى من « القوّة » . ولا يخفى علينا أن فينا جميعًا ـ بفضل العادة وبسببها ـ ميلاً غريزيًا شديدًا لسلوك أسهل السبل وأقلها مقاومة. فنحن نميل إلي السير في الطريق الذي اعتدنا السير فيه.. نميل ؟ بل نحن مسوقون سوقًا، ومدفوعون دفعًا عنيدًا إلى هذا الطريق الذي علينا أن نسلكه ما لم نقبض على زمام الأمور بأيدينا، ونعقد العزم على أننا لم نعد عبيدًا، بل سادة أعزة نسيطر على أنفسنا، ونملك ناصية أمورنا » (*) .

(*) قوانا الكامنة وكيف نستغلها : د. عبدالعزيز جادو ، اقرأ ، ص ٨٩ .

ونحن لن نملك ناصية أمورنا بالفعل إلا عندما نعمل مع القوّة التي بداخلنا، لا ضدها، بل عندما نعمل على تحقيق هدف تلك القوة.. وهي قوّة لا هدف لها سوى أن نحقق ذواتنا. فهل حقًا تمكنا حتى الآن من تحقيق ذواتنا ؟

لقد قلنا إن تحقيق الذات يتطلب وجود فلسفة ذاتية. وكل فلسفة ذاتية تقوم على عناصر ودعائم أهمها: الاستقلال والتحرر والإبداع والتمرد وبناء الذات وفقًا لرؤية مستقلة وتبعًا لنموذج مثالي للشخصية . فهل في نسق الثقافة السائدة في مجتمعنا والتي نشأنا عليها مثل هذه القيم ؟ أعني قيم الفردية والتحرر والاستقلال والإبداع والتمرّد ؟

أعتقد أن الإجابة هي التي تحدد لنا إلى أي مدى حققنا ذواتنا.

فالواقع أننا نولد في مجتمع، ومن ثم نجد نسق وجودنا قد حدد لنا سلفًا، بكل دقائقه وتفاصيله. فما الذي اخترناه من هذا الوجود ؟ ما الذي اخترناه ـ مثلاً ـ من شخصيتنا ؟ وما الذي اخترناه من أفكارنا وقيمنا ومعتقداتنا ؟

وإذا كانت الشخصية التي نحن عليها بالفعل ، والأفكار والقيم والمعتقدات التي توجه سلوكنا ، كلها من صنع المجتمع، ومن صنع الأسرة، من صنع الثقافة السائدة في مجتمعنا، فأين أصالتنا (الفردية) الشخصية ؟ أين إبداعنا ؟ وهل يحق لنا أن نتحدث عن « ذاتية » تدل علينا باعتبارها من صنعنا نحن ؟

وإذا لم يكن لنا أي يد في إبداع « ذاتيتنا » فإلى أي مدى نُسأل عن وجودنا وعن سلوكنا ؟

بناء الذات :

الواقع أننا لا نُسأل عن وجودنا إلا إذا كنا بالفعل قد ساهمنا إلي أبعد مدى، بل دون أي قيود أو تدخلات خارجية، في صياغة وصناعة هذا الوجود وفقًا لرؤيتنا وفلسفتنا الذاتية .

إن المرء إذا تركت له مسئولية صياغة وجوده، وبناء ذاته، فإنه يحتاج إلى فلسفة، بل إنه سوف يعمل من تلقاء ذاته إذا لم يكن مطلعًا على فلسفة القوّة ، وفقًا لمبادئ فلسفة القوّة ، لأن أهداف هذه الفلسفة هي : « تحقيق الذات » .

والكائن البشري عمومًا تدفعه قواه الداخلية لتحقيق ذاته، وإذن فإن بناء الذات يعتمد اعتمادًا جوهريًا على الإيمان بفلسفة القوّة ، فالإيمان بها يسهل عملية إدراك الكيفية التي يجب بها أن نوظف قوانا وملكاتنا ومواهبنا لتحقيق ذاتنا .

بداية البناء إذن هي التوصل إلي نسق فكري متكامل، يقوم على دعائم نقدية لنمط وجودنا الذاتي ونمط الوجود المجتمعي الذي ننتمي إليه، خاصة في الجوانب السلبية التي تعوق مشروع بناء وجودنا الذاتي. فإذا أمكننا أن نقف من وجودنا (الذاتي والمجتمعي) موقفًا نقديًا، أمكننا بالتالي أن نتجاوز كل أسباب تخلف الوجود المجتمعي والذاتي، وأمكننا أن نحل فلسفة القوة محل الأفكار السلبية التي نشأ عليها وجودنا الذاتي والمجتمعي معًا .

ولسوف تمدنا فلسفة القوّة بالأفكار اللازمة لتحقيق هدفنا الوجودي وهو (تحقيق الذات) بعد أن نرسم لأنفسنا الصورة المثلي التي نريد لذواتنا أن تكون عليها .

إن فلسفة القوّة هي التي سوف تمدنا بالإطار المعرفي الذي يجب أن يحكم ويوجّه قوانا في الطريق الأنسب لتحقيق الذات، على أن تكون الذات التي نبغي تحقيقها هي: الأذكى والأقوى، ولن يكون للذات هذا الذكاء ولا تلك القوّة إلا إذا تفردّت بين القطيع البشري في مجتمعها . وهي لن تتفردّ إلا إذا بنت نفسها من جديد في ضوء فلسفة القوّة ، وفي ضوء نقدها الذاتي لنمط الوجود الذاتي والوجود المجتمعي معًا .

* * *

قوة الإرادة وقوة الشخصية

أصبح من البديهي أن يقال الآن : إذا كانت الإرادة مركزها الدماغ. فإن قوّة الإرادة هي في أصلها : « قوّة الفكر » . ومن هنا يمكننا التعرف على تلك القوّة من أثرها فينا من جهة، كما يمكن التعرف على أثرها في العالم الخارجي . أي في (الأشياء والبشر) من جهة أخرى .

الأثر الذاتي للقوة :

قوّة الفكر، أو الإرادة قوّة لها أثرها النفسي- الجسمي الذاتي، فأفكارنا تؤثر فينا، وأثرها يتجلى أوضح ما يكون في النفس أولاً، ثم في الجسد بعد ذلك، ويحدث ذلك لأن كل فكر هو في الحقيقة (قوّة) تتخذ شكل الموجة أو الذبذبة ذات التردد، وكل موجة وكل ذبذبة تترك أثرها، من نفس نوعها، في كل خلية من خلايا الجسد .

فإذا كانت أفكارنا التي تحرك مشاعرنا سلبية، أي تدور كلها حول التشاؤم والمرض والعجز والضعف وعدم القدرة أو الاستطاعة على فعل أي شيء مهما كان ضئيلاً أو عظيماً . فإن الوجدان النفسي لنا لن يمتلئ بغير المشاعر التي أنتجتها في نفسنا تلك الأفكار السلبية، ورويداً رويداً تستقر تلك الأفكار والمشاعر بخبراتها

المؤلمة في اللاشعور، وتظل كامنة تتحين الفرص للظهور على مسرح الوعي والسلوك مع أقرب فرصة نختبر فيها قدراتنا في موقف عملي .

فالمرء في المواقف العملية يستدعي خبراته من اللاوعي، فإذا كانت تلك الخبرات المكونة من الأفكار السلبية هي السائدة المستبدة في اللاوعي ، فإن الفشل والتذبذب هو النتيجة المحتمة التي يجب أن ننتظرها إذا خضنا مواقفنا العملية، إننا لن نحقق إلا ما نفكر فيه، لأن ما نفكر فيه هو ما نحن عليه بالفعل .

أما إذا كانت أفكارنا التي تحرك مشاعرنا إيجابية، أي تدق كلها حول القوّة والتفاؤل والقدرة والصحّة والنشاط والإنجاز والثقة بالنفس والإيمان بالنجاح كثمرة لما نبذله من الجهد، فإن الوجدان النفسي لنا يمتلئ بهذه الأفكار ومشاعرها ، ويهيئ طاقتنا النفسية لإنجاز ما آمنا به من الأفكار .

والخلاصة هي : أننا كما نتصور أنفسنا وكما نريدها نكون، فما نحن إلا حصيلة ما زرعناه في نفوسنا من أفكار ، أي من قوى : بناء أو هدم، ولا أحد يبني نفوسنا أو يهدمها سوانا نحن، سوى أفكارنا وقوانا التي يمكننا أن نبني بها أو أن نهدم بها أنفسنا كيفما نريد. فالقوّة التي فينا يمكن أن تكون سلبية، كما يمكن أن تكون إيجابية ، إنها قوة الفكر والإرادة، وعلينا نحن أن نوجه تلك القوّة الوجهة التي تبني نفوسنا وتوجه مشروع وجودنا نحو النجاح والقوّة والتحقق .

الأثر الخارجي للقوّة :

كما نتأثر بالفكر والإرادة ، نؤثر بهما .

بيد أن كلا من الفكر والإرادة يؤثران فينا بغير وسائط خارجية، وإنما بوسائطنا نحن، أي بوسائط من الفكر والشعور واللاشعور. أما عندما نريد أن نؤثر في الواقع الخارجي بالفكر والإرادة فلا بد لنا من استخدام عدّة وسائط تنقل الأثر إلى الخارج وتجعله أقرب إلى هدفه ومن تلك الوسائط : الصوت، وتعبيرات الوجه، والعيـــن .

على أن المؤثر الحقيقي هو « قوّة الفكر » ذاتها. لا الوسائط التي تنتقل بها تلك القوّة الفكرية، وللقوّة الفكرية على ذلك ، عدّة وسائل وطرق مختلفة في استخدام الوسائط الناقلة للتأثير الفكري، ومنها على سبيل المثال: الوسائل الرئيسية ، كالإيحاء . كما أن منها الوسائل الثانوية، وهي التي تدعم الوسائل الرئيسية ، ومنها : التكرار.

فنحن نؤثر عندما ننقل فكرة ما بصوت معين (نبرة) فنترك أثرًا في نفس المستمع ، فإذا (كرّرنا) نفس الفكرة بنفس الصوت والنبرة تحول الأثر الذي تركناه إلى (إيحاء) . وتتوقف قوّة الإيحاء على مدى قوّة الفكرة التي نرددها من جهة، وعلى مدى الصدق الذي نردد به الفكرة، إذ كلما كنا أصدق في الإيمان بما ننقله إلي غيرنا من الأفكار. كان إسراع الغير إلى تبني تلك الأفكار والإيمان بها أفضل وأقوى .

فالوسائط والوسائل التي ننقل بها الأفكار، هي نفسها التي ننقل بها القوى الكامنة فينا إلى غيرنا، ليؤمنوا بما نؤمن. غير أن إيمانهم لا يجعل منهم أقوياء في نفس قوتنا، لأن قوتنا تصدر عن ذاتنا وأصالتنا في القوّة الشاملة، أما الذين تأثروا بنا فهم أقوياء فحسب فيما آمنوا به تلقينا عنا، فقوتهم ليست شاملة، وليست أصيلة، بل هي قوّة ـ تابعة، مستمدة من منابع خارجية للقوّة .

ومن الوسائل الرئيسية التي تستخدمها القوّة الفكرية في التأثير ، ولا بد لكل شخصية تتسم بقوة الإرادة، وبالتالي بالقوّة الشخصية، أن تعرفها جيداً حتى تستخدمها في التأثير على واقعها لخدمة مشروعها الوجودي الذاتي: ما يعرف لدى العامة من سمات رئيسية للشخصية التي تتسم بقوّة الإرادة . وتعرف بين الناس باعتبارها من الشخصيات القوية . فما هي تلك السمات ؟

سمات الشخصية القوية :

الشخصية القوية ليست شخصية استبدادية، وإن كانت شخصية تتطلع إلى قيادة أو زعامة، بل هي بالفعل شخصية قيادية تتسم بروح الزعامة .

ولا شك في أن الروح القيادية أو روح الزعامة لا بد لصاحبهما من أن يتسم بعدّة سمات رئيسية أهمها: الخيال، وقوّة الفكر، والشعور بالتميز والاختلاف عن الغير، والتمرد الفلسفي من أجل تحقيق غاية يعتقد أنها الرسالة العظمى التي يجب أن تؤدى في الوجود ، والثقة بالنفس، والجرأة .

ومن الواضح أن هناك علاقة وثيقة بين هذه السمات وبين مكونات الإرادة القوية، فلكي يكون المرء قوياً لا بد له من امتلاك أسباب القوّة ، ولا بد له من معرفة قوانين استخدام تلك القوّة . ولقد ذكرنا تلك الأسباب واعتبرناها السمات الرئيسية للشخصية القوية .

« إن لدى معظمنا فكرة بأن الإرادة معناها جعل الفرد يعمل بنفسه شيئًا ما، أو يعمل بطريقة معينة . ولكنها تعني في الحقيقة أننا نجعل أنفسنا (نفكر) بطريقة معينة. والأفعال إنما تنمو وتبرز من الأفكار والخواطر. وهذه الأفكار أو الخواطر التي تتحكم في الشعور أو العقل الواعي وتتسلط عليه، هي ذاتها التي تدفع إلى الفعل وتستحث إليه . والمسألة برمتها الخاصة بالإرادة هي : الانتباه - الانتباه إلى الأفكار التي ترغب في تحقيقها ، والتي ترى ضرورة إنجازها في حياتك، والتمسك بهذه الأفكار بإصرار وحزم وثبات، وتثبيتها أمام العقل إلى أن يمتلئ بها تمامًا(*)».

يجب إذن وأولاً أن نؤمن بما نريده لأنفسنا إيمانًا لا تنازل عنه، فالمسألة هي : أن نكون أو لا نكون .

والواضح أن أصحاب الإرادة القوية والشخصية القوية كان اختيارهم منذ البدء هو أن يكونوا، بل أن يكونوا كما هم أي أقوياء بالتحديد، فأما أن يكونوا

(*) المرجع السابق : ص ٩٣ .

أقوياء أو لا يكونوا على الإطلاق أي شيء ، ذلك أن الأقوياء حقًا هم فقط الذين يفعلون ويؤثرون في العالم ، وهم بالتالي وحدهم الذين ينجحون في التميز والتفرد من بين الحشود الهائلة للقطعان البشرية المتشابهة والتي لا تمايز بين أفرادها . فما مدى أهمية السمات التي أشرنا إليها في الشخصية القوية ؟

الخيال :

الخيال قوّة أو طاقة موسعة للأفق، والذهن المبدع الخلاق المبتكر الطامح لا بد له من قدر مناسب من الخيال حتي يرتاد المجهول من الطرق، ويبتكر الجديد من الأساليب، فالخيال هنا قوّة لا غنى عنها للإبداع والتجديد، والشخصية القوية ، شخصية متميزة لأنها ترتاد الطرق غير المألوفة، أو الصعبة التي يحجم عن خوضها السواد الأعظم من الناس من ذوي الشخصيات العادية والخيال المحدود .

والخيال طاقة أساسية للفكر، طاقة صاقلة ورابطة للأفكار، ومن خلال قيام الخيال بوظيفته في الصقل والربط بين الأفكار والتصورات، يتمكن الذهن من إنتاج التراكيب الفكرية الجديدة. ويقول أمين رويحة في « الإيحاء الروحي » إن « التخيل إما أن يكون (مطلقًا) وإما أن يكون (مصوبًا) ، فالتخيل المطلق لا يقيد تصوراته ولا يحدد لها نطاقًا خاصًا ، بعكس التخيل المصوّب. فإنه يحدد مجال تصوراته بإطار عملي، أو أدبي أو فني أو غير ذلك، ففاعلية التخيل لا تقتصر إذن على عملية (الضم والمزج والتحوير) بل إنها أيضًا فاعلية (خلاّقة) إذ تخلق - في الداخل - تصورات لا يمكن لأي عالم أو فنان أو أديب الاستغناء عنها للإبداع في عمله وإنتاجه بل هو لا غنى عنه لكل شخصية تتمتع بقوة الإرادة وبقوة الفكر .

قوة الفكر :

فالشخصية القوية تؤثر بالفكر وقوته، كما تؤثر بإرادتها، بيد أن قوّة الإرادة تعتمد اعتماداً أساسياً على قوّة الفكر، ومن هنا فإن الشخصية القوية تتسم بالقوّة الفكرية. بيد أن القوة التي للفكر تنشأ عن بناء فكري ـ فلسفي متكامل يحدد للشخصية أهدافها ورؤيتها الوجودية،كما يحدد لها إطارها الشخصي الوجودي، أي تصورها عن ذاتها ومدى ما يجب أن تبذله تلك الذات لاستكمال جوانبها، استكمالاً لجوانب قوتها الوجودية وتحقيقاً لوجودها، إذن فالأفكار القوية لا تنبت خارج الأنساق الفكرية المتكاملة التي تحدد موقف الإنسان من ذاته ومن العالم من حوله، وتحدد أهدافه وميوله واتجاهاته.

وعلى ذلك فالشخصية القوية، شخصية مفكرة، تملك نسقًا متكاملاً من الفكر يوجه مسارها ويوظف قواها بهدف تحقيق نجاحها الذاتي وإثبات وجودها . لكن لما كان هذا النسق الفكري يهدف إلي تحقيق درجة عظمى من الوجود المتميز، الواضح القوّة والتفرد، فقد توجب على هذا النسق الفكري الفلسفي أن يتحدد مضمونه في فلسفة تبنّي القوّة وأفكار « تحقيق الذات » دون غيرها من الأفكار والفلسفات .

التميز والاختلاف :

لا شك في أن الشخصية القوية هي تلك الشخصية المتميزة المختلفة عن كثير من الشخصيات المتشابهة في المجتمع، ولا شك أيضاً في أن تميزها واختلافها يرجعان إلى سماتها المتفردة . وفي مقدمة هذه السمات : قوّة الفكر التي تنشأ عن الإيمان بفلسفة القوّة ومبدأ «تحقيق الذات». والواقع أن الإيمان بمثل هذه الفلسفة ومثل هذا المبدأ هو الذي يقود حياتنا النفسية والعملية فيصبغ شخصيتنا بتلك الصبغة التي عرفت بها شخصيات العظماء من رجال الفكر والإبداع وسائر من كان لهم الأثر في التاريخ البشري من أصحاب الرسالات. فإذا صاغتنا الأفكار على

هذا النحو أصبحنا بالفعل من أهل التميز والاختلاف، ولا شك - بعد هذا - في أن الشعور بالتميز الحقيقي يمدنا بقوّة إضافية تزيد من طاقاتنا وقوانا .

وهكذا فإن الشخصية القوية، شخصية متميزة بقواها ، وتعرف كيف تستغل هذا التميز للحصول على المزيد من القوّة، وهي تسعى دائمًا إلى مضاعفة طاقاتها وقواها لخدمة الهدف الذي تؤمن به وفقًا لمبدأ « تحقيق الذات » .

التمرد الفلسفي :

لا شك في أن الإيمان بفلسفة القوّة، والعمل وفقًا لمبدأ « تحقيق الذات » من شأنهما أن يقودا صاحبهما إلى موقف فلسفي - وجودي لا مفر منه ، ألا وهو «التمرد » . والتمرد هنا هو ذلك الموقف الذي يقفه الشخص المتميز المختلف عن سائر الأقران في مجتمع يتشابه الأفراد فيه ويتساوى مستوى طموحهم كما تتساوى طاقاتهم في ضمورها بسبب خضوعهم للإيمان المسبق بالنسق الثقافي والقيمي السائد في المجتمع .

فالقوّة الفكرية تنشأ - كما قلنا - بسبب وجود نسق فلسفي معبأ بمفاهيم القوّة وأفكار ومبادئ« تحقيق الذات » . وهذا النسق يبدأ في بنيته الفلسفية من تساؤل الفرد عن ذاته، وعن المسئول الحقيقي عن بناء هذه الذات، فإذا أدرك المرء أنه ولد فوجد نسق وجوده محددًا له سلفًا، وطبقًا للعقائد والثقافة السائدة في المجتمع فإنه يدرك كذلك أنه يتشابه إلى حد التطابق - اجتماعيًا وفكريًا - مع سائر أفراد القطيع الاجتماعي الذين يكونون معًا - باشتراكهم في مجتمع واحد - (هويّة جمعية) لهذا المجتمع. بينما تظل هويّة كل فرد مطموسة أو ممسوخة أو مغتربة ، أي غير محققـــة .

ومن هنا يبدأ المرء في العمل المتمرد لبناء (ذاته) أي لإيجاد (هويته الفردية) التي يريدها، والتي يصبح مسئولاً عنها مسئولية (ذاتية فردية) . وهذا العمل هو (فعل التمرد ذاته) لأنه يهدف إلى الاختلاف والتميز عن سائر أفراد القطيع في

أفكارهم وشخصياتهم. بيد أن فعل التمرد هنا هو فعل إبداع ، لأنه يهدم القديم كله على مستوى الفرد والمجتمع بهدف تأسيس الجديد، والنتيجة هي التقدم بالفرد والمجتمع .

وأول ما يقوم به عمل التمرد هو القضاء على تبعية الإنسان للمجتمع في مجال القيم والأفكار، ودفعه دفعًا إلى عدم التسليم بالأفكار والقيم التي تجاوزها الزمن، أو الأفكار السلبية التي تعرقل نمو الفرد النفسي والاجتماعي والثقافي. فإذا تمرد المرء، هذا التمرد، أصبح مدركًا لهدف حياته، وأصبح لوجوده قيمة تتعدى حياته الذاتية، لأن فعل الإبداع الذي يقوم به سوف ينعكس أثره ـ حتمًا ـ على تقدم المجتمع .

وعندما يشعر المرء بأن عليه أن يؤدي مثل هذه الرسالة نحو المجتمع، فإنه يكون مثل سائر أصحاب الرسالات الإنسانية في التاريخ . وينعكس أثر هذ الشعور في النفس فتزداد قواها وطاقاتها وتتجلى كأوضح ما تكون عناصر تميزها واختلافها وعظمتها وقوتها

فشعور المرء بأنه المسئول عن إعادة صياغة وجوده، ومن ثم عن إعادة الوجود الجمعي، هو في ذاته شعور يملأ المرء بالقوّة الدافعة والباعثة على الإبداع والإنجاز، ومن ثم النجاح في تحقيق الهدف النهائي الذي يهدف إليه فعل التمرد الفلسفي وهو : « تحقيق الذات » . فالتمرد الفلسفي ثمرة من ثمار قوة الإرادة وقوة الفكر معًا، أما التمرد الأعمى بغير سند من العقل والفلسفة، وبغير هدف سوى الظهور، فهو تمرد سلبي يهدر القوى دون أن يوظفها .

الثقة بالنفس :

لا شك في أن الثقة بالنفس من أهم بواعث القوّة النفسية، وبالتالي من أهم لوازم الشخصية القوية: فالثقة بالنفس إحدى دعائم قوّة الإرادة. وليس من المتصور أن

يقدم الإنسان على ارتياد الطرق الجديدة أو الصعبة. أو حتى أن يقدم على مواجهة المواقف الاعتيادية دون أن يتسلح بهذا السلاح من الثقة النفسية .

فالثقة بالنفس، في حدودها الطبيعية، تعني إدراك القوي والقدرات والطاقات والإمكانات الفعلية التي يملكها المرء. فإذا خدع المرء نفسه في تقدير ملكاته وقواه الفعلية تحولت ثقته بنفسه إلى وهم وغرور، وسرعان ما تكشف المواقف العملية القدرات والطاقات والإمكانيات الفعلية التي يملكها المرء. فإذا خدع المرء نفسه في تقدير ملكاته وقواه الفعلية تحولت ثقته بنفسه إلى وهم وغرور، وسرعان ما تكشف المواقف العملية القدرات الحقيقية لمن يتوهم في نفسه من القدرات ما لا يملكه بالفعل، وعندئذ يصدم المرء بواقع فشله وعجزه .

وعلى العكس من ذلك فإن الثقة بالنفس، بمعناها الصحيح السالف، تؤهل صاحبها لخوض معارك الحياة والسيطرة على المشاكل ومواجهة المواقف بنجاح، بفضل التوظيف الأمثل للقدرات والملكات والإمكانات والقوى الفعلية التي يملكها . فالتوظيف الأمثل للثقة بالنفس من شأنه أن يضاعف القوّة النفسية، وهذه الأخيرة تضاعف بدورها قوّة الإرادة .

الجرأة :

ما جدوى الإيمان بدون الجرأة ؟

إذا كان المرء ممن يدركون أنهم يتميزون عن سواهم بقوّة الفكر والإرادة والشخصية، وإذا كان ممن تمكنوا بالفعل من تكوين النسق الفكري المتكامل المعبأ بالمضامين الفلسفية البانية للذات من الناحية النظرية ، فما جدوى كل هذا دون الجرأة التي تحول الأفكار إلى أعمال ؟ الجرأة التي تقود الإرادة إلى أقصى حدود استنفاد طاقتها برغم كل الحواجز والمعوقات .

ومما لا شك فيه أن المجتمع يضع في سبيل أصحاب المواهب المتميزة والقوى الخلاقة ما يعرقل مسيرتهم ويحدّ من تفوقهم ونجاحهم، وما يجعل لمستوى

طموحهم حدوداً قد يتصور البعض منهم ألا سبيل إلى تجاوزها . وتأتي في مقدمة المعوقات الاجتماعية لإرادة النجاح والتغيير والتقدم سلسلة العادات الاجتماعية القديمة التي تشكل إحدى دعائم العرف السائد والثقافة السائدة في المجتمع .

والواقع أن السواد الأعظم من البشر في المجتمع أسرى لتلك العادات، والواقع أيضاً أن المجتمع قد استعبد هذا السواد الأعظم بتلك العادات فأصبح أغلب القطيع يرى في الخروج على تلك العادات خروجاً على المألوف قد يصل إلى حد الشذوذ . وهكذا يستعبدنا المجتمع عندما يدفعنا إلى أن نجعل من أنفسنا حراساً على سجوننا النفسية التي لا جدران ولا قضبان لها سوى العادات التي تقيدنا بأفكارها إلى أنماط معينة من السلوك، وبالتالي إلى قوالب نفسية تأسرنا بما نعتقده فيها .

وهنا تكون أهمية الجرأة والإقدام على هدم هذه السجون، وتحرير أنفسنا من القيود والأغلال، بيد أن تحطيم أغلال عبوديتنا لن يكون إلا بمعول قوّة الفكر وقوّة الإرادة، وبالتمرد الفلسفي. وبنفس المعول يجب أن نقدم بكل جرأة وإصرار على هدم كل ما يعوق تقدمنا الوجودي ويهدر قوانا بلا طائل ويعرقل نمونا النفسي ومشروعنا الوجودي الذي يهدف إلى « تحقيق الذات » .

وقد يكون من المفيد أن نكرر هنا أن « تحقيق الذات» المطلوبة، هو المقصود به (الذات المستقلة) المتحررة التي أعادت صياغة وجودها بعد أن نظرت في نمط وجودها السابق فرأت فيه إهدارا لقواها وذاتيتها وقتلاً لطموحها وإمكاناتها. بل رأت فيه استعبادا تراثياً واجتماعياً يعوق التحقق الوجودي والتقدم الاجتماعي معاً .

ومن ثم فإن السعي الوجودي للذات لتحقيق تحررها واستقلالها إنما يمثل نضال القوى الكامنة فيها للتوصل إلى تحقيق أفضل وأرقى أنماط الوجود، وأفضل

وأرقى أنماط الوجود هو ذلك النمط الذي نحقق فيه ذواتنا بكل قواها وملكاتها، وفي جميع ميادين الحياة الفردية والاجتماعية .

فليس من هدف القوّة الكامنة فينا، أيا كانت، أن ترتقي بنا وحدنا، بل إن هدفها ليس محصوراً في المطالب الأنانية البتة ، برغم أن « الذات » هي الهدف الأول لتلك القوى، ولكن الرقي الذي نريده لأنفسنا والذي (نتمرد) بهدف تحقيقه ، لا يتحقق إلا بظهور إرادة أخرى هي (إرادة التجاوز الذاتي) للذات .

فإرادة التجاوز هي ما تشعرنا دائماً بعدم الرضا عما نحن فيه، وهي ما يدفعنا دائماً لتحقيق الأفضل عبر القلق والتمرد على الوضع الوجودي الذي تقولبنا فيه إلى حدّ الثبات والكمون. فالوجود الحي دائماً هو الوجود المتحرك قدماً إلى الأمام، هو الوجود المتوتر القلق على المستقبل. وهذا التوتر وهذا القلق هما دعامتا (إرادة التجاوز الذاتي) التي بها نتجاوز ذاتنا الحالية صوب ذاتنا المثالية التي نريد تحقيقها من جهة، وهي نفسها إرادة التجاوز التي تدفعنا إلي التمرد على المجتمع بهدف التقدم به صوب ذات اجتماعية تحقق من الوجود لجميع أفراد المجتمع نمطاً متحرراً من عبودية القوالب التي فرضتها العقائد والثقافة الاجتماعية السائدة ، وهنا أيضاً لا بد لإرادة التجاوز - لكي تعمل فينا - من الجرأة ؟

ومن فضل القول أنه لا تحرر إلا بالجرأة على التحرر والاستقلال بهدف تحقيق الذات، فالحرية هي الوجود الحق، لأننا لن نوجد كما نريد إلا عندما نملك حريتنا ونتحرر من عبودية القوالب، عندئذ سنفعل كما فعلت المادة عبر تاريخ تطور الحياة، أي أننا سوف نبحث عن أفضل الأشكال أو الأوضاع التي يمكن أن نوجد خلالها ونحقق أهداف وجودنا ، هكذا فعلت الطاقة إلى أن تحولت إلى مادة وهكذا أيضاً فعلت المادة الجامدة إلى أن ظهر الانبعاث الحيوي (تيار الشعور الوعي) فيها ، أي هكذا تطورت (إرادة القوة) إلى (إرادة وجود). وما زالت (إرادة القوّة) فينا ، منذ انبعاث الحياة في المادة ، تحاول الارتقاء بالوجود الحي مما هو بشري إلى ما هو

إنساني، ويتم ذلك عبر التمرد على القوالب والأنماط السائدة التي اكتسبت بفعل الزمن والعقائد قدراً من الثبات الوهمي.

وأخيراً، فمن الملاحظ أن ما اعتبرناه سمات الشخصية القوية، هو نفسه مكونات الإرادة ووسائط عملها، بل الإرادة القوية خاصة، لأننا جميعاً نملك تلك الطاقة التي تحركنا نحو أهدافنا، بيد أن قوّة هذه الطاقة تتوقف في مداها على نوع الأفكار التي نؤمن بها، ثم على مدى التصميم على التطابق مع تلك الأفكار ليتحول وجودنا من نمط ثابت إلى مشروع وجودي دائم التحقق والتقدم بفضل قوّة الإرادة .

* * *

كن ذاتك تكن قويًا !

نحن جميعًا نملك تلك الطاقة العظمى، أو القوّة الدافعة التي نسميها الإرادة .

ومعظم الناس يستخدمون تلك القوّة في تحقيق أغراضهم وأهدافهم دون أن يحيطوا علمًا بمكونات أو بآليات عمل تلك القوّة وأهميتها في تحقيق النجاح، لكنهم مع ذلك يستخدمونها دونما معرفة كافية بها أو بحدودها وأبعادها وآليات عملها وطرائق توظيفها .

والواقع أننا لو علمنا آليات عمل الإرادة وأضفنا إلى هذا العلم معرفة الكيفيات الصحيحة لتوظيف الإرادة لأمكننا أن نستفيد من قوّة الإرادة بشكل أفضل مما نستفيده منها في حالة استخدامنا لها ونحن نجهل آليات عملها وطرق تطويرها وتنميتها وتوظيفها .

والواقع أننا نتفق مع « وليم أتكنسون » في قوله: إننا لكي نستخدم قوّة الإرادة بكيفية ملائمة يلزم لنا ـ أولاً ـ معرفة حقيقة الإرادة، التي ينبغي لاكتسابها معرفة ما الإنسان بكامل معنى الكلمة، إذ إن كثيرين منا لا ينظرون إلى الذات الإنسانية إلا كجسم طبيعي، وهذا هو مذهب الماديين، وآخرون يعتقدون في وجود (الأنا) وهي: نعت للفكر ومركزه في المخ، وهو الذي يسيطر على الجسم، ولهذا الرأي

نصيب من الصحة . لكنه ليس صحيحاً من كل الوجوه، وهناك قوم آخرون يعتقدون أنه يوجد في داخلهم (آنية عليا)، وعدد قليل من هذا الفريق يدرك معنى هذه الآنية العليا، ويطبق حياته على قوانينها . فحقيقة الذات البشرية أنها في منزلة أرقى من النفس، كما أن النفس أسمى من الجسم ، والنفس والجسم هما الذات البشرية أنها في منزلة أرقى من النفس، كما أن النفس أسمى من الجسم ، والنفس والجسم هما في درجة أقل منها ، أي من تلك الذات، وما الإنسان (النفس والجسد) إلا آلة لها، تستخدمه متى وجدت ضرورة لذلك .

إن (الأنا) الحقيقية هي التي تشعر بها عندما تفكر، ونشعر بوجودنا في حالة فحص نفوسنا. وكل واحد منا قد شعر في وقت ما بحقيقة وجود ذاتيته، ولكنه أهمل إدراك أهمية ذلك، إن (الأنا) : قادرة ولا يفوق قدرتها شيء في ذلك الوقت الذي تتعلم النفس فيه أن تخضع لإرادتها، فيتجدد الإنسان ويبلغ درجة من القوّة لم يكن يشعر بها من قبل، إذ ليست الإرادة إلا مظهراً لفكر الفرد، وتوجد علاقة بين هذين الوصفين، مماثلة للعلاقة الموجودة بين النفس والروح. وإننا نعني بقولنا : «نمو الإرادة » نمو النفس في سبيل معرفة وجود الإرادة وقوة سلطان الإرادة على النفس.

إن الإرادة بذاتها قويّة ولا تحتاج إلى نموّ. وهذا القول مع تمام صحته يخالف القول المألوف، إذ ينتشر تيار الإرادة في مجموع المسالك النفسية. غير أنه يلزم إثبات اتصال تلك المسالك بالقاطرة (الإرادة) لكي يمكن لك أن تسيّر قطار النفس(*) .

وعلى ذلك، لا تنفصل الإرادة القويّة عن الفكر القوى أو الشخصية القوية، كما لا تنفصل الإرادة الضعيفة عن الشخصية أو الأفكار الضعيفة ، إذ إن مصدر قوتك

(*) القوة الفكرية في المغناطيسية الحيوية : وليم أتكنسون ، ت حنا سعد فهمى .

أو ضعفك هو : أنت .. نفسك، فانظر في هذه النفس، وتعرّف مواطن قوّتها، ومواطن ضعفها، بحيث تعمل على مضاعفة وزيادة القوّة، وتقوية الضعف أو إكمال النقص، وأفضل الطرق إلى ذلك هو أن تجعل لنفسك هدفًا عظيمًا في الحياة يضم سائر الأهداف الأخرى، ويجمع الانتصارات الصغرى، ويلزمك لذلك أن تكون من العظماء، أي أن تبني لنفسك شخصية مثالية عظيمة، لأن شخصيات العظماء لا تطمع إلا في الانتصارات العظمى، ولا تتجاهل مع ذلك الانتصارات الصغرى، والانتصار الأعظم هو النجاح الشامل الكامل الذي هو : كسب معركة الحياة .

فإذا جعلت « كسب هذه المعركة » هدفًا لك فإنك ستجد نفسك تختلف بالتدريج عن سواك، وخاصة ممن هم في نفس مستواك وظروفك، لأنك ستفكر بشكل أفضل وستضاعف جهودك ونشاطك ، وستظل في حالة من يقظة الفكر والنقد الذاتي، إذ « كثيرًا ما يشكو المرء من طبعه في حين لا نسمعه إلا نادرًا يشكو من ذكائه . والطالب الذي يرسب في الامتحان - مثلاً - يتهم الممتحن بالتحيز والتحامل عليه. وعندما تحتد المناقشة بين شخصين ويعجز أحدهما عن إقناع الآخر فلا يجد مخرجًا للموقف سوى أن يرمي الآخر بالغباوة وعدم الفهم . والواقع أن اعتزاز المرء بذكائه وفطنته أمر ملحوظ، وعندما يصرح بأنه غبي فما تصريحه هذا سوى ضرب من الإثبات ولكن في صورة النفي (*) » .

وليس المقصود - طبعًا - أن تظل تنقم على نفسك أو أن تسرف في اتهام ذاتك بالغباء، بل المطلوب هو أن تنظر إلى نفسك كما هي - على الحقيقة - وأن تقدرها حق قدرها ، فترى جوانبها الإيجابية كما لا تتغافل عن جوانب نقصها حتى تتمكن من إكمال النقص وتنمية القدرات الإيجابية .

(*) سيكلوجية الجنس : د. يوسف مراد ، اقرأ ، ص ٢٧ .

وإن أنت جعلت لنفسك هدفًا في الحياة فإن طموحك يتساوى مع هذا الهدف، عليك إذن أن تنمي مستوى الطموح بتنمية الشخصية ذاتها، وعليك أن تنظر في مكونات شخصيتك والدعائم الفكرية التي تنهض عليها تلك الشخصية، فإن اهتمامات المرء تشكلها تلك الدعائم الفكرية التي هي محور شخصيته. والعمل الدائم على إثراء عالمك الفكري، هو عمل - في نفس الوقت - على إثراء الشخصية .

ومعنى ذلك أنه كلما كانت لدينا حصيلة معرفية كبرى، وكلما كان تفكيرنا موضوعيًا وعلميًا، وكلما حاولنا أن نكوّن لأنفسنا فلسفة ذاتية لبناء وجودنا، قطعنا الشوط تلو الشوط في اتجاه تحقيق الذات المثالية التي نرجو أن نحققها في أنفسنا . وكلما شعرنا بأننا نسير على الطريق الذي يؤدي بنا إلى تحقيق ذاتنا، كان شعورنا بما نملكه من القوى أعظم، وكان استخدامنا لتلك القوى أنجح وأوقع وأظهر في مختلف ميادين الحياة .

وبالطبع فإن الأهداف العظمى تتطلب بذل الجهود العظمى، ومهما كانت رؤيتنا للواقع ومعوقاته وعراقيله رؤية يمكن وصفها بالتشاؤم ، فإن سمو أهدافنا سوف يدفعنا - حتمًا - إلى التغلب على تلك المعوقات والعراقيل التي تعوق نجاحنا في الواقع . لأن سمو الهدف - كما قلنا - يؤدي إلى بذل الجهد المناسب لتحقيق الهدف .

* * *

هنا يجب أن نقول أيضًا إن : « علم الصحة العقلية وقانون الصحة الروحية ، لهما قيمتهما التي لا تقدر، أما الكوارث والأهوال ، وأما الفقر والفاقة، وأما الضعف والضعة فهي جميعًا من نصيب أولئك الذين لا يكترثون باحتياجاتهم، ولا يهتمون بمطالبهم، ولا يطالبون بحقوقهم، وطبقًا لقوانين يجب أن نعترف بها يمكن للقدرات العقلية والروحية أن تنمو وتكبر، ويمكن لطاقاتها أن ترقى .

أما الذين لا يهتمون بهذه القوانين، فلن يحققوا أي أمل في النجاح، وأنه لمن الجهل أن نسلم - والعقل في سموه وعظمته - بأنه لا حاجة لنا إلى العمل بموجب قوانين أو قواعد نسير بمقتضاها، ما دمنا أحرارًا في توجيه أسلوبنا في الحياة حسبما نهوى، وفي استعمال طاقاتنا في فعل غير مقيد، وهذا الأسلوب لا تكون مغبّته إلا الضعف والحيرة والارتباك فهو تبديد تام للطاقة .

وقانون الصحة العقلية لا بد أن يكون مرتبطًا ومحكومًا بقانون الصحة الطبيعية، ويتم هذا بدقة متناهية، عملاً بقوانين الفعل الطبيعي. وهذه القوانين ليست سهلة الفهم كلها، ولكننا إذا استعملنا ما نعرفه منها بفهم وإدراك فسيعود ذلك على الإنسانية جمعاء بالنفع والفائدة (*). فليس المطلوب منا أن نعمل في سبيل التناقض مع الطبيعة، أو في سبيل التناقض مع أنفسنا وحاجاتنا وقوانا، بل أن نعمل بالتعاون مع تلك القوى وهذه القوانين الطبيعية .

وقد يحتم علينا ذلك أن نتناقض في بعض الأحيان مع المجتمع، لا سيما إذا كانت السلبيات الاجتماعية هي التي تحدد مصائر الأفراد. وإذا كان المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في هذا المجتمع متردياً، فليس من معنى لهذا التردي سوى أن المجتمع لا يسير وفقًا للقوانين الطبيعية ، لأن القوانين الطبيعية ليس لها من هدف سوى تحقيق أفضل صور الوجود. والطبيعة شأنها شأن الإنسان تعمل بقوانين تهدف إلى تحقيق المصلحة أو المنفعة الوجودية، أي أن ما نختاره لأنفسنا - غالبًا - هو ما يحقق لنا النفع والسعادة، لا سيما إذا أدركنا مدى القدرات التي نملكها، وحددنا لأنفسنا هدفًا أعظم في الحياة نعمل من أجل تحقيقه ونوظف جميع قوانا وملكاتنا وقدراتنا لبلوغ هذا الهدف.

أما النفوس الصغيرة، أو الضعيفة، أو المحدودة القدرات والطموح فإنها لا تسعى إلاخلف الأهداف القصيرة المدى ، ولا تتحمس أو تبتهج إلا بالانتصارات

(*) قوانا الكامنة وكيف نستغلها : سابق ، ص ٦٣ .

الصغرى المتواضعة الشأن التي يمكن لجميع الناس أن يحققوها بجهود متواضعة .

والعكس من ذلك بالنسبة للنفوس العظيمة القوية التي تؤهلها قدراتها وطموحها إلى السعي خلف الأهداف البعيدة المدى، وهي لا تتحمس أو تسعد إلا بالانتصارات العظمى الكبيرة الشأن التي لا يمكن لجميع الناس أن يحققوا بعضًا منها إلا ببذل عظيم الجهد، وربما فشلوا - رغم ذلك الجهد - في بلوغ نفس المرام .

فاختر لنفسك ما شئت، وارغب تجد، واطلبْ تُعْطَ، بقدر ما تبذل من الجهد تحقق الهدف، وبقدر ما تحقق من أهدافك بقدر ما يظهر جليًا ذكاؤك وقوتك ، ليس ذلك فحسب، بل أيضًا نجاحك وتميزك وتفردك.

إن سر النجاح الذي نفشيه لك هو أن تعمل على « تحقيق ذاتك » بشرط أن تطلب (التفرّد) لهذه الذات في كل شيء ، وهنا يجب عليك أن تفهم من التفرد ذلك المعنى الذي يجعل من سواك شيئًا لا يرتفع إليك أو يلحق بك في أي مضمار من مضامير النجاح المادي أو المعنوي .

لا تقنع نفسك أنك بالفعل كذلك، وأنك لا ينقصك الذكاء أو قوّة الإرادة أو التفرّد، فإنك إن فعلت كنت واهمًا ، بل عليك أن تعمل وتبذل من الجهد ما يبلغ بك هذه المرتبة العظمى من القوّة والتفرّد بالفعل. ولعلنا نسدي لك المزيد من الإرشاد إذا وضعنا لك بعض المبادئ التي يؤدي الالتزام بها إلى النجاح والقوّة والتفرد. وهي:

- لا تستسلم للفشل منذ المحاولة الأولى بل حاول عدّة مرات دون كلل.

- لا يجب أن تحتل الأعمال الروتينية مساحة أكبر مما ينبغي في حياتك. أو على الأقل لا يجب أن تسمح لها بأن تطغى على الأعمال ذات الأهمية الكبرى .

- إذا انتهيت من عمل لا تعد إليه مرة أخرى إلا إذا شعرت أن ثمة خطأ فيه يستحق الدراسة حتى تتمكن من تلاشي الأخطاء فيما بعد، أو الإقلال منها قدر الإمكان.

- إذا اضطلعت بعمل من الأعمال، لا تفكر في عمل آخر قبل الانتهاء من عملك الأول الذي يجب أن يستحوذ على كل ذهنك واهتمامك وتركيزك حتى تتمه على أكمل وجه .

- لا يجب أن تكون الثمار المادية وحدها هي كل هدفك من النجاح في أعمالك .

- لا يجب عليك الاستسلام للشعور بعدم جدوى جهدك إذا لم تكافأ على هذا الجهد، بل يجب الاستمرار في العمل والإصرار على إظهار تميزه وتفوقه على أعمال الغير، ليس بالأقوال، بل بالمزيد من الجهد والابتكار والتطوير.

- اجعل هدفك الأساسي هو تحقيق النجاح والمكانة الكبرى بين أقرانك وابحث عن الوسائل التي تحقق لك هذا الهدف ، سواء كانت معنوية أو مادية .

- لا بد أن تسلم بخطأ المثل القائل بأنه : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » فقمة الإبداع ليست نهائية، بل يليها قمم إثر قمم، ولا تبلغها إلا همم لا تعترف بالمستحيل أو قصور الإمكانات مهما كانت العوائق.

- لا بد من الاعتراف بأن المثابرة والمواظبة على أداء العمل من أهم شروط نجاحه مع النظام والنشاط.

- لا تبخس نفسك قدرها، ولا تعطها أكثر من حقها .

- تساءل دائماً عن جدوى حياتك إذا لم يستفد منها العالم .

- تذكر أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى همم أعظم، فكن من أهل الهمّة تكن من أهل القمة العظماء، واضطلع بالأعمال الكبرى تحقق النجاح الملحوظ .

- لا تستسلم مهما كانت المشاكل كثيرة وعظيمة. فإن مواجهتك لها وتحديك لها وإيجادك لحلولها يزيدك قوّة وينمي شخصيتك وعقلك وقوّة تحملك وقدرتك على الاستمرار من أجل تحقيق النجاح .

- عندما تفكر في أي مشكلة أو قضية لا تخضع في طريقة التفكير فيها إلا إلى طريقتك أنت، شرط أن يكون هدف طريقتك في التفكير هو الوصول إلى حلول مبتكرة جديدة .

- تساءل دائمًا عن أعمالك العظيمة التي قدمتها للعالم، وتساءل عما سوف تقدمه، ثم لا تكتفي بالوقوف عند حدود التساؤل، بل ابدأ العمل .

- لا تتوقف أبدًا عن متابعة مضاعفة خبراتك المعرفية فإن النفس وقوتها إنما يبنيهما الفكر والمعرفة والتحصيل الثقافي المستمر، فليس ثمة نهاية للعلوم أو المعارف التي يمكنها أن توسع مداركنا وتنمي نفوسنا باستمرار وبلا حدود .

* * *

خاتمة

أردنا بهذا الكتاب أن نبلغ القارئ رسالة محددة هي : أن الوجود كله نشأ من القوّة، وأنه استغل تلك القوّة في تطوره بهدف بلوغ (تحقيق الذات) ، فأعظم قوّة ما يشعر به الإنسان عندما يحقق ذاته، وليس من سبيل إلى تحقيق الذات إلا بإطلاق العنان لجميع قوانا وملكاتنا ومواهبنا وتحريرها من القيود أيا كانت لأننا لن نجد سوى هذه المواهب والملكات والقوى لكي نحقق به ذاتنا .

ولنعلم جميعًا أن تجميع كل قوانا وتركيزها على هدف واحد هو (تحقيق الذات) من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق ذات قوية متميزة ذكية مبدعة متفردة. لكن يشترط لهذا أن يتحرر المرء أولاً من القوالب الاجتماعية التي فرضها المجتمع على شخصيته وأفكاره، وهو لن يحقق تحرره واستقلاله إلا عندما يتخذ الموقف الفلسفي المتمرد تجاه المجتمع ونسقه الثقافي. عندئذ فقط يستطيع المرء الاجتراء على نقد المجتمع ونقد ثقافته بهدف التجاوز لهما بالإبداع .

ولنتذكر أيها القارئ أن أعظم قوّة تضيفها إلي قواك هي القوّة التي تحصل عليها نتيجة تحررك من أسر قوالب المجتمع، فإن هذا المجتمع يحكمنا من خلال مخاوفنا ويستعبدنا بالمخاوف التي تقيدنا إلى المجتمع وأفكاره فنخشى الخروج عليها ونفقد الجرأة على الإبداع والنقد والتجديد ونظل في قوالب المجتمع كالعبيد في الأغلال .

إذن فالبدء بتحطيم تلك الأغلال هو أولى خطوات التحرر، والتحرر هو أول الطريق إلي السيادة والقوّة. وأنت إذ تحررت أصبحت سيد نفسك، وأمكنك بعد ذلك أن ترسم لحياتك مشروعها الوجودي الذاتي المستقل وفقًا لفلسفة خاصة بك وحدك، تدل على تفردك وذاتيتك ، فمنبع القوة بعد التحرر هو (فلسفة القوّة الذاتية) .

استخدم العقل والذكاء وقوّة الإرادة في بناء تلك الفلسفة، وسترى عندئذ أن هذه العناصر هي ذاتها عناصر القوّة الكامنة في كل وجود . ويمكنك إذن أن تحقق هذه القوة الوجودية لأنك أدركت عناصرها، ووظفت هذه العناصر في بناء فكري فلسفي يوجه مسيرة حياتك .

اجلس إلى نفسك قليلاً، انزع عن نفسك ما ترتديه من أقنعة المجتمع، فإن الأقنعة لا تمثل حقيقتك الإنسانية، فإذا فعلت ستجد نفسك عندئذ متسائلاً : من أنا ؟ لماذا أظل في موضعي هذا، ثابتًا وضعيفًا ؟ لماذا لا أتقدم أو أنجح مثل غيري ؟ وإذا تساءلت نشطت همتك إلى الفكر ثم التخطيط لمشروع النجاح الشامل في الحياة .

لذا يجب عليك أن ترسم لحياتك خطة كاملة، شاملة، تكون بمثابة الخط الذي لا تحيد عنه، لأنه يؤدي في النهاية إلي تحقيق أهدافك في الحياة .

ومجمل أهدافك في النهاية هو : حاصل قيمتك ، وإبداعك ، وشخصيتك.

ولقد كان قدر غالبية الشخصيات هو الزوال بعد رحيلها عن العالم المادي، قلّة قليلة من العظماء هم من يخلّدون ، لأنهم أصحاب أهداف وشخصيات عظيمة، لذا كانت حياتهم عظيمة، وكانت شخصياتهم باقية، فالعالم لا يحتفظ إلا بمثل هذه الشخصيات التي تضيف قيمتها وإبداعها إلى قيمة الوجود . لذا فإن الوجود ـ اعترافًا بفضلها ـ يمنحها : « الخلود » .

* * *

المصـــادر

- القدرات العقلية عند الأطفال ثيلما ثيرستون ، كاترين بيرن
ت : عبد الفتاح المنياوي - دار النهضة المصرية .
- القوة الفكرية في المغناطيسية الحيوية وليم إتكنسون
ت : حنا سعد فهمي - ن . م البلدية .
- الذكاء وتنميته لدى أطفالنا د / إسماعيل عبد الكافي
مكتبة الدار العربية ، القاهرة .
- الدافعية والابتكار لدى الأطفال د / محمود منسي
مركز النشر الجامعي – جامعة الملك عبد العزيز ، جدة .
- النمو النفسي د / عبد المنعم المليجي مكتبة مصر ، القاهرة .
- الإيحاء الروحي د / أمين رويحة - ن . م البلدية .
- الطريق إلى النجاح عاطف عمارة منشورات الغالي .
- قوانا الكامنة وكيف نستغلها؟ عبد العزيز جادو - دار المعارف ، اقرأ .
- التربية الإسلامية : نظامها، فلسفتها، تاريخها د / أحمد شلبي
مكتبة النهضة المصرية .
- نظرية المعرفة د / فؤاد زكريا - مكتبة مصر ، القاهرة .

المحتويـــــات

رقم الايـداع : ٤٤١٦/ ٩٦
977-276-140-8



هـذا الكتـاب

هو واحد من اثنى عشر كتابا، كرسها المؤلف لتبسيط العلوم السيكلوجي ويدور كل كتاب منها عن موضوع محدد محوره الرئيسى هـو (الشخصية).

وتتناول هذه السلسلة الموضوعات الآتية :

الشخصية السوية، الشخصية القيادية، الشخصية المثالية، الخوف والتوتر النفسى، الذكاء وقوة الإرادة، أعرف نفسك، الشخصية العبقرية أنت وشخصيتك، كيف تكسب الآخرين ، الطريق إلى النجاح ، الشخصية المغتربة، الشذوذ النفسى.

وقد حرص المؤلف على تناول أهم الموضوعات التى تضىء حاضر ومستقبل الشباب وترسم ملامح الشخصية الناجحة الفعالة ومقوماتها الإيجابية كل هذا فى أسلوب سهل مبسط يعرض العلوم النفسية بطريقة سهلة التناول إيمانا منه بضرورة نشر المعرفة النفسية فى الأوساط الشبابية لما يمكن أن تمثله هذه المعرفة من دفعة قوية فى طريق المستقبل المشرق.

الناشر